المنطلقات الفكرية

والاستراتيجية الثورية

مقدمة: على طريق المعلم

أطلق سعاده تيار النهضة السورية القومية الاجتماعية وإنشاء مدرسة الفكر القومي الاجتماعي ووضع المنطلقات التي تلتزم بها مدرسة الفكر القومي الاجتماعي وحدّدها بأنها نظرة شاملة إلى الحياة والكون والفن لها فلسفتها الاجتماعية ونظرتها إلى الإنسان والقيم وتفسيرها المدرحي للتطور الاجتماعي. وبنصوص من سعاده أن "موضوع فلسفة الزعيم، اذن، هو الإنسان والقيم الإنسانية لا منشأ الكون" (مقال "نظرة سعاده إلى الإنسان" (شروح في العقيدة)، وانها بديل "لعقيدة تفسير التطور الإنساني بالمبدأ الروحي وحده وعقيدة تفسيره من الجهة الأخرى بالمبدأ المادي وحده (مقال "النظام الجديد" "شروح في العقيدة" لسعاده) وأن "عقيدتنا الاجتماعية تنظر إلى الإنسان من زاوية الحقيقة الإنسانية الكبرى – حقيقة المجتمع" ("نظرة سعاده إلى الإنسان") وأن المجتمع التام هو الأمة التامة – وهذا هو "المتحد الأتم" (راجع "نشوء الأمم") وأن العقيدة قومية اجتماعية وهي قومية بمعنى الوحدة القومية والولاء القومي (راجع "شروح في العقيدة") وأن الوحدة القومية المتينة المؤسسة على مفهوم القومية الاجتماعية "لا يمكن أن تحصل ضمن نظام اقتصادي سيئ كما أنه لا يمكن أن تحصل ضمن نظام اجتماعي سيئ" (شرح المبدأ الإصلاحي الرابع، كتاب التعاليم السورية القومية الاجتماعية)، وأن العقيدة القومية الاجتماعية على هذا الأساس هي نظرة وتجسيد، مدرحية، تؤمن بالحق المنتصر في الصراع الإنساني ولذلك فمبدأ "إلغاء الإقطاع وتنظيم الاقتصاد على أساس الإنتاج" هو عند سعاده "المبدأ العظيم الذي يوجد مجتمعاً جديداً في نظرته إلى القيم الاجتماعية" فالقيم والنظام الجديد لا ينفصلان بل يتكاملان في التجسيد.

وكل هذه المنطلقات الأساسية التي تشكل قواعد الفلسفة القومية الاجتماعية، كما وضعها سعاده تحتاج إلى الدرس والتأمل بل إلى دراسة منظمة متسلسلة لا تحدّ بحدود: "بديهي إذن لا نتمكّن من فهم قضية الحزب السوري القومي الاجتماعي كلها بكامل أجزائها وفروعها وما تتكشّف عنه من مناقب وأهداف سامية وما تتعرّض له في سيرها من مثالب في الحياة إلا بالدرس والتأمل الطويل. إن قضية من هذا النوع تتكشّف عن كل هذه الأهداف الخطيرة تحتاج إلى دراسة منظمة متسلسلة لا تجمعها محاضرة واحدة أو كتاب واحد، بل

هي تستمر، ويستمر الفكر يتغذى منها ويتفتح على شؤون العالم مطلقاً، ويظل مجتمعنا يجد في هذا التفتح وهذا الاستمرار مراقي إلى ذروة الحياة الجيدة التي تليق بالإنسان الراقي ويليق الإنسان الراقي بها". (ص.ص. 19- 20 "المحاضرات العشر"، سعاده).

فالزعيم المعلم المؤسس يدعونا إلى هذه الدراسة المنظمة المتسلسلة التي تستمر ويستمر الفكر يتغذى منها ويتفتح على شؤون العالم مطلقاً، يدعونا إلى هذا التفتح وهذا الاستمرار صعوداً إلى مراقي الحياة الجيدة التي تليق بالإنسان الراقي. وعلى طريق المعلم الذي أراد مدرسة الفكر القومي الاجتماعي أن لا تهدأ، أن لا تكسل وتخمد وتضمحل في النكوص عن إعمال العقل وتفاعله مع ظروف المجتمع ومواضيعه ليعطي بإخصاب، دائم ومضطرد، كان جمع هذه السلسلة.

ويشمل الجزء الأول من هذه السلسلة مجموعة من المحاضرات والدراسات بقلم الرفيق إنعام رعد.

وإن هذه الأبحاث أجازتها المؤسسات ولها طابعها المسؤول، من دون أن يعني أن أياً منها يحمل الحقيقة الأخيرة، لأن هذه هي ملك العقل، عقل النهضة، عقل المجتمع في تفاعل كل طاقاته وإمكاناته.

المنطلقات الفكرية للحزب

واستراتيجيته الثورية

*** ألقي هذا البحث في عاليه بمناسبة مرور 40 سنة على تأسيس الحزب.**

وقد نشره ملحق النهار على حلقتين بتاريخ 26 تشرين الثاني 1972- 3 كانون الأول 1972.

تقسم هذه المحاضرة، كما هو واضح من عنوانها، إلى قسمين رئيسيين: المنطلقات الفكرية للحزب السوري القومي الاجتماعي أولاً، ثم استراتيجيته الثورية ثانياً. وسأحاول في كل قسم أن أعرض الملامح الرئيسية التي تكوّن الموضوعة المطروحة.

ولا بد لنا عند درس أية ظاهرة ثورية، من أن نلمّ بالمقدمات والخلفيات التاريخية والاجتماعية التي تفاعلت معها الظاهرة.

ولا بدّ إذن، عند درس الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي تأسس في مطلع الثلاثينيات من أن نعود مع مؤسسه وزعيمه إلى مرحلة المخاض الثوري السابقة لفترة التأسيس. نعود إلى العشرينيات من هذا القرن، لنجد سعاده يحيا المخاض الثوري الذي انبثق عنه تأسيس الحزب بعد عقد من السنين من خلال معاناته لظاهرتين: ظاهرة عامة هي "ثورة الشرق"، وظاهرة خاصة هي ثورة بلادنا من هذا الشرق، ففي آذار 1925 يكتب سعاده في مجلة "المجلة" ويقول: "لذلك نقول بوجوب إضرام نار عارمة في الشرق، ونحبذ تباشير الثورة المنطلقة من سوريا ومصر ومراكش والصين وأقسام أخرى من الشرق". وفي المرحلة نفسها يكتب أيضاً: "أن الحال قد تبدّلت كثيراً عن ذي قبل، والشعوب التي ذكرناها هي الآن عبارة عن براكين تسير فيها الثورات البركانية سيرها النظامي. والوقت الذي تبتدئ فيه تلك الثورات الدخول في طور انفجارها الأخير ليس بعيداً بل هو قريب جداً".

هذا في الظاهرة العامة، "ثورة الشرق" لبلدان آسيا وأفريقيا التي تندلع منها لهب حركة التحرر القومي المجابهة للاستعمار، وسعاده يحبذ هذه الثورة ويحيّيها في مطلع انطلاقتها قبل خمسين سنة.

ثم يحيا الظاهرة في نطاقها الخاص بأمته، وهي مصدر قلق ومعاناة له، فيكتب في المرحلة نفسها في 1925 متسائلاً: "هنا يخطر على بالنا سؤال خطير هو: متى يأتي دورنا نحن؟". الثورة التي تلف بلدان الشرق يريدها سعاده أن تعصف ببلاده، ولماذا؟ لأن في بلاده محرضات على ثورة أكثر من أي بلد مستعبَد آخر. فهو يكتب في تلك المرحلة بالذات أيضاً أن بلاده تواجه الاحتلالين الفرنسي والانكليزي، وهو يدعو الشعب "إلى وجوب الاتحاد على التخلص من قيودهما"، ويدرك أنه بالإضافة إلى الاستعمارين الغربيين، هناك غزوة استيطانية استعمارية أشد خطراً، هي في طور الكينونة، فيقول في مجلة "المجلة"، في حزيران 1925 "فاليهود يجتمعون في كل صقع من أصقاع العالم للتآمر علينا مع المستعمرين". ويتحدث في شباط 1925 عن أن السوريين يكونون قد تخاذلوا "إذا تركوا الصهيونيين ينفذون مآربهم ويملكون فلسطين"، وإذا لم تتم حركة معاكسة للحركة الصهيونية "فإن هذه الحركة سائرة إجراءاتها إلى النجاح".

لكن الثورة التي كانت الرد الطبيعي على مثل هذه الحالة، لم تنبجس، ولم تنفجر براكينها. ويعلّق سعاده على هذا السكون الذي واجهت به الأمة تحديات المصير تآمر الاستعمار والصهيونية، يعلق على هذه الحالة، بتعليق لاحق فيقول "إن تصريح بلفور هو تصريح اعتدائي على وجود الأمة السورية وعلى سيادتها وحقوقها، ولمجرد إعلانه كان يجب أن يكون سبباً كافياً بإثارة نقمة الأمة واحتجاجها ومقاومتها، ولكن الأمة السورية في ذلك الوقت كانت جسداً بلا روح".

أولاً: هنا نضع أيدينا على محور الموضوعة الأولى: الاختزان الثوري للمرحلة:

حرب التحرير القومية، كان مفروضاً حسب تحليل سعاده، وحسبما كان الواقع، أن تنفجر في 1916، أو 1917 على أبعد حدّ، ضد المؤامرة الاستعمارية التي مزقت بلادنا، وضد المؤامرة الصهيونية التي ركزت لنفسها موطئ قدم فيها. حرب التحرير لم تندلع، لأن الأمة كانت حسب تعبير سعاده الرمزي "جسداً بلا روح"، وفي مقطع آخر يحلل كيف كانت الأمة، وهذه أيضاً من كتاباته في العشرينيات، فيقول: "أما البرهان على حالة الشلل فظاهر في جميع القضايا الوطنية التي يطلب حلها من الشعب. ففلسطين المنفردة في مقاومة الصهيونية والانتداب البريطاني تجاهد كثيراً من دون أن يأتي جهادها بالغاية المطلوبة لأن اليهود لا يزالون يتوافدون عليها ويشترون أرضها، ويزاحمون أهلها على الحكم، وهذه حالة كان يمكن أن تتغير كثيراً لو كانت سوريا كلها قائمة بمقاومة الحركة الصهيونية". فالعلة في التجزئة التي تهدر الطاقة القومية. وأن ملاشاة هذه التجزئة السياسية التي فرضها المستعمر تصطدم بملاشاة التجزئة الاجتماعية التي أفرزها عصر الانحطاط الطويل، ويحتاج الأمر إلى حركة تعي القضية القومية وتقيم تنظيمها على أساسها. من هنا صلة الرحم في أمة مستعبدة مجزأة ضائعة الهوية بين الثورة القومية والحركة الثورية.

إن تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي بعد عقد من الزمن على هذه المعاناة في المخاض الثوري يمكن أن يوصف بالاختزان الثوري والزمني والفكري للأحداث والمرحلة. إن حرب التحرير التي كان يجب أن تنطلق عفوياً في 1917 تأخرت لأن الأمة مفككة وتمر في مرحلة انحطاط، والتناقضات الداخلية أقوى من أن تمكنها من الصمود للعدوان الخارجي. اذاً يجابه سعاده التحدي بالتطلع نحو تأسيس النواة الثورية التي تغيّر هذه الحال تغييراً جذرياً.

التحدي هنا يتطلب استجابة، والاستجابة تتطلب تجاوز معطلاتها. إن طبيعة الاستجابة هي في قدرتها على تجاوز معطلاتها التي حالت دون انطلاقها في الماضي. ولماذا لم تستجب الأمة لتحديات المصير، لأن هناك معطلات. والحركة الثورية من أولى واجباتها أن تكون في مستوى التحدي وتجاوز معطلات الاستجابة وتعطيل مفاعيلها حتى تستطيع الأمة أن تنطلق في المواجهة المصيرية.

ثانياً: وعلى هذا الأساس كانت النهضة – الثورة.

الحزب السوري القومي الاجتماعي عملية تاريخية اجتماعية مركبة. هو ليس حلقة أو جمعية للبحث المجرد، على حد قول سعاده، وهو ليس حزباً سياسياً بالمعنى المألوف، هو نهضة – ثورة. والمعنيان متلازمان. هو نهضة – ثورة لأنه يتنكّب مسؤولية تمكين الأمة من تجاوز معطلات التحدي للاستجابة القادرة على التصدي لهذا التحدي التاريخي.

وللنهضة مدلولان عند سعاده. وأي اجتزاء لهذين المدلولين والاقتصار على أحدهما دون الآخر، يعطل المعنى الحقيقي لما قصد سعاده بالنهضة. فالنهضة أولاً، لها مدلولها العقائدي. وكما يحدّدها سعاده: "لها مدلول واضح عندنا، وهو خروجنا من البلبلة والتخبّط والتفكك الروحي بين مختلف العقائد إلى عقيدة جلية صحيحة واضحة.. إلى نظرة جلية قوية إلى الحياة".

والنهضة بهذا المعنى العقائدي تستهدف بناء الإنسان. فالمطلوب أولاً، بناء الإنسان الثوري الذي اتضحت له طبيعة المرحلة، وطبيعة التحدي والاستجابة. ولكن إذا اقتصر معنى النهضة على بناء الإنسان، من دون أن يكون لهذا الإنسان من هدف تحقيقي في المجتمع، كان عملاً طوباوياً. النهضة لا تريد أن تبني إنساناً جديداً يتفرج على العالم من حوله، وليقول بأنه قد حصل على الخلاص الذاتي، فأصبح قومياً اجتماعياً ولم يعُد طائفياً ولا عنصرياً ولا متخلّفاً، ويكتفي بهذه البراءة الذاتية. النهضة تريد أن تبني إنساناً ليصارع ويحارب، في سبيل انتصار حقيقي ملموس في المجتمع. ومن هنا يأتي المعنى الثاني للنهضة كما يحدده سعاده: "هذه هي حقيقة النهضة: صراع داخلي عنيف: ثورة فاعلة أحياناً، وأحياناً بطيئة، وأحياناً مستعجلة وأحياناً حارة، وأحياناً باردة، وأحياناً دامية وأحياناً غير دامية، ولكن الحقيقة الأساسية هي أننا لسنا واضعي سلاح الحرب.. إلى أن تنتصر حياة الأمة وإرادتها على السياسات الخصوصية والإرادات الأجنبية".

فبناء الإنسان يستهدف خلق النواة الثورية المصارعة في المجتمع لتغيير أوضاعه ثورياً، والانتصار بحقيقته ونظامه الجديد على الإرادات الخصوصية وعلى الإرادات الأجنبية المتحالفة معها.

بهذا المعنى الحركة السورية القومية الاجتماعية هي عقيدة تبني الإنسان، ولكنها تنطلق بهذا الإنسان المبني الجديد ليصارع ثورياً لدكّ الأوضاع القديمة وإقامة النظام الجديد.

الفكر والممارسة وجهان لحقيقة واحدة لا انفصال ولا ثنائية ولا تناقض بين أطرافها.

لا ثورية من دون عقيدة النهضة. ولا عقيدة من دون صراع ثوري في النهضة. النهضة – الثورة، العملية التاريخية الاجتماعية المركبة، الإنسان الجديد يصارع في سبيل قيام النظام الجديد. هذا هو الحزب السوري القومي الاجتماعي.

وفي هذا المجال تتعرض النهضة من دون ريب، لمفهومين جزئيين مخالفين لطبيعتها وأسسها، لمفهوم الحرفية والجمود اللفظي والفكري من جهة، ولمفهوم الانزلاق عن قواعدها ومرتكزاتها من جهة ثانية.

وما هي الحرفية؟ الحرفية كما أحاول أن أحددها، هي الهلع والخوف أمام الكلمات الناتج عن العجز العقلي والقصور الفكري عن إعطائها المضامين. هذا العجز يتبدّى من أن الحرفية تصبح أسيرة الكلمة لأنها تتجمّد عند حروفها ولا تستطيع أن تعطي الكلمة مضامينها المحددة القادرة على أن توجهها وجهة جديدة. ولعل أكبر عبرة على نقض الحرفية أن سعاده في أوج الصراع العقائدي الذي رافق نشوء الحركة السورية القومية الاجتماعية، وكان الشأن القومي هو المطروح بين تحديد للعروبة أو السورية، لم يتورع عن استعمال كلمة العروبة بالذات، وهي في الطرف الآخر من الحوار العقائدي المحتدم. ويعطيها المضمون القومي الاجتماعي. فكانت العروبة السورية القومية الاجتماعية، العروبة العلمية، العروبة الحقيقية، العروبة الواقعية، في تعبير سعاده. لم يقل: لنا مفهوم للعروبة ولكن ليس هناك عروبة سورية قومية اجتماعية، بل قال بكل عفوية وبساطة وعظمة، عظمة المعلم الواثق من فكره، ومن نهضته: العروبة السورية القومية الاجتماعية.

وإذا كانت الحرفية هي هلع وتهرّب من أمام الكلمات، وظاهرة عجز عقلي وقصور فكري، فالانفلات من القواعد مضيّع للهوية، مستبق للمراحل، يصدر عن انعدام في الثقة بالنفس وبالقضية، ويعتبر وكأنما الحركة

بحاجة إلى تجديد من الخارج. مع الحركة السورية القومية الاجتماعية تنطلق من أسس تجعلها دوماً تواكب العصر وترود وتقود.

ومن أولى هذه الأسس أن سعاده جعل العقل الشرع الأساسي في المجتمع.

ومن أولى هذه الأسس أن النهضة القومية الاجتماعية اعتمدت العلم والأسلوب العلمي في تحديد الأمة والمجتمع – وأنها بالتالي تقبل بتطور العلم وتعتمد الموضوعية التي لا يمكن أن تتجمد عند نظرية مسبقة أو سلفية. فهي إذ ترفض الدوغماتية المذهبية، إلا أنها "عقيدة جلية صحيحة واضحة" كما يعرفها سعاده، تعطي للوعي الثوري قيمة أساسية في التحقيق العلمي، وتؤمن بقيمة الفكر الواضح دليلاً ثورياً لا غنى عنه في مسيرة الثورة.

ومن هذه الأسس أن المخطط القومي الذي طرحه سعاده لتوحيد سورية الطبيعية وقيام نظامها الجديد، هو مخطط لم تزل المرحلة بكل أحداثها بعد أربعين سنة من تأسيس الحركة القومية الاجتماعية، في كل أمتنا والعالم العربي، متخلفة عما استشرف سعاده وعما أراد وناضل.

لهذا كله نؤمن بأن منطلقات الحركة السورية القومية الاجتماعية منطلقات قيادية رائدة وبأن الانطلاق منها كفيل بحصول التجدد الذي لم ير له سعاده حداً عندما قال في ختام كتابه "الصراع الفكري في الأدب السوري" بأن في الإمكان قيام "عالم أجدّ" شرط أن يرسي وينبثق من هذا العالم الجديد الذي تناضل حركتنا لقيامه.

فلم يجعل إذا للنمو نهاية مختومة بالحتم بل جعل التفاعل النامي الذي لا حد له منطلق هذه الأمة، وهذه الحركة العظيمة بنهضتها العقلانية القادرة على استيعاب الظاهرات وعلى ريادة الزمن وسباقه.

ثالثاً: والحركة السورية القومية الاجتماعية تنطلق من الشأن القومي.

يعتبر سعاده أن فقداننا سيادتنا القومية هو نتيجة فقداننا وعينا القومي وعلى هذا الأساس كان وعينا القومي طرق استرداد هذه السيادة. كان الوعي القومي عند سعاده، مقولة ثورة.

وفي ضوء هذا الفهم نستطيع أن نعي ماذا تريد من المبادئ الأساسية التي تطرح تاريخ أمتنا، وجغرافيتها، وتراثها القومي، ومزيجها السلالي، ومصلحتها العليا في الحياة، وارتباط الأمة بالوطن. كل هذا، إذا نظرنا إليه مجزءاً إلى مواضيع اختصاص تحولنا إلى أكاديمية تدوخ في اختصاصات العلوم المختلفة وتفاصيلها الجغرافية والتاريخية والسوسيولوجية. ولكن هذه العلوم الاختصاصية تشرح التفاصيل، إنما لا يجوز إطلاقاً، أن نعتبر أن موضوعة هويتنا القومية كما هي مطروحة في المبادئ الأساسية هي مجرد معرفة علمية في سبيل المعرفة. لأننا بذلك نجرده من القصد الحقيقي الذي أراده سعاده. وهذا القصد هو أن الوعي القومي مقولة ثورية صراعية لتحقيق غاية محددة. يختصر سعاده هذا المعنى، بهذا القول: "إن انعدام الوعي القومي في شعبنا، قد أفقدنا معظم مواردنا الأولية المهمة. فهنك بترول الموصل – منطقة الجزيرة – وبترول النقب السوري، وهناك أملاح البحر الميت – التي وضع اليهود أيديهم عليها – وهناك أراضي كيليكية والاسكندرون وفلسطين الخصبة التي انتزعت من السيادة السورية". اذاً، انعدام الوعي القومي أفقدنا سيادتنا القومية على

أرضنا. اذاً، الوعي القومي هو طريق استعادتنا لسيادتنا القومية.. وهذا منطقي وموضوعي، لأنه إذا كانت الحركة الثورية القومية هي النقيض للإمبريالية والاستعمار، فلا يمكن أن نحدد الاستعمار كظاهرة اقتصادية سياسية، وتدرس الإمبريالية بكل تشريحاتها، وأن نجهل الحركة النقيض لها التي هي نحن، الحركة الثورية القومية.

لا يمكن أن أعي نقيضي قبل أن أعي ذاتي. ومن هنا كان وعينا "لمن نحن"، هو مقولة ثورية في مجابهة الاستعمار، في تحرير أرض أمتنا، وفي توحيد هذه الأرض، وفي تحقيق السيادة القومية الكاملة عليها، وفي توحيد المجتمع القائم عليها ليستطيع أن يستردّ ما اغتصب منها وما سلخ وما وقع تحت الاحتلال. فالوعي بالهوية القومية، في أمة مجزأة مستعبدة، تطمح بحياة حرة كريمة سيّدة على أرضها، هو مقولة ثورية بالضرورة.

ومن هنا، فإن الانطلاق من الشأن القومي لا يمكن بصورة من الصور، في الظروف الموضوعية لمثل أمتنا، أن تكون يمينية متخلفة عن العصر. إن مثل هذا القول هو طفولي يمثل اليسار الطفولي، وهو غريب كلياً عن الواقع. لأنه في عصر مجابهة الإمبريالية والاستعمار، لا يمكن أن تنطلق الثورية واليسار إلا من مواقع الشأن القومي، ولأنه لا يمكن أن تتحقق ثورة أممية في وجه الإمبريالية، فلا ثورة إلا انطلاقاً من حروب التحرير القومية والتي شهدناها من الصين إلى فيتنام إلى الجزائر إلى فلسطين. ولأن الدفاع عن أرض الوطن هو المجابهة الحقيقية العملية للاستعمار، والشهداء الذين يموتون في سبيل أوطانهم هم الذين يواجهون تنين الإمبريالية ويصرعونه، فالمقولة التي تعتبر أن الشأن القومي يعني مواقع اليمين بالضرورة هي مقولة خاطئة، طفولية، دوغماتية منسلخة عن واقع الثورة المعاصرة.

أن الثورة متى انطلقت من الشأن القومي، كانت في مواقع اليسار شرط أن يكون لها مضمونها الاجتماعي الثوري الواضح. ومقياسها لجهة الثورية هو مضمونها الاجتماعي لا منطلقها القومي الذي هو منطلق ثوري بالضرورة. ولينين نفسه يقول في آخر ما كتب بأن حركة التحرر القومي في المستعمرات قد ينتج عنها ثورية "أكثر مما نتوقع"، وهذا بالفعل، ما حصل في الخمسين سنة الأخيرة، أن حركة التحرر القومي لعبت دوراً فاصلاً مصيرياً في تقويض الاستعمار "أعلى مراتب الرأسمالية"، كما تحدده اللينينية نفسها.

كذلك لا بد هنا من القول بأن لا أممية بمعنى المجتمع الإنساني الواحد في وجوده ومصالحه، في ظروف الإنسانية ومجتمعاتها الراهنة، وبأن الطرح الأممي عاد فخضع لواقع المجتمعات في هذا العصر. يقول سعاده "بثقافة إنسانية عامة". وحركتنا القومية المنطلق ليست شوفينية ولا متقوقعة على نفسها. إنها تؤمن بشراكة الثقافة الإنسانية العامة، أنها تؤمن بأن هناك صرحاً للتمدّن الإنساني أسهمت فيه أمتنا في الماضي، وتريد حركتنا أن تعيد أمتنا للإسهام فيه من جديد. ولكن هذه الثقافة الإنسانية العامة، كما يقول سعاده: "يدهش المفكر لألوانها المتعددة تعدّد القوميات والخصائص النفسية التي تتكشف عنها في أمم عددها عدد البيئات". إذاً الأممية والإنسانية لا تبلغان إلا انطلاقاً من الشأن القومي باعتبار الأمة هي المجتمع التام، هي المتحد الإنساني الأتم.

وفي المقولة الثورية القومية أيضاً نعود إلى تحديد سعاده للامة، لأن هذا التحديد ينعكس على المعالم الثورية الأخرى لحركتنا. أبرز ما في هذا التحديد، أن الأمة هي "وحدة العوامل النفسية – المادية" وأنها "دورة اجتماعية اقتصادية" وأنها "حصيلة التفاعل بين الإنسان والأرض". هنا نجد أن الأمة هي حصيلة التفاعل،

وهذا مفهوم ديناميكي حركي للشأن الاجتماعي، فالأمة ليست مجموعة عوامل ستاتيكية جامدة، كما هي في مدارس الفكر الأوروبي، أو الأميركي، التي على اختلافها تطرح الشأن القومي طرحاً رومانسياً شوفينياً.

الأمة، في القومية الاجتماعية، هي حصيلة عملية Process حياتية حركية هي التفاعل. وعلى هذا الأساس نرى أفقاً إنسانياً عريضاً. لأنه إذا كانت الأمة وحدة حياة حصيلة التفاعل بين الإنسان وبيئة طبيعية محددة، هو القطر القومي، فإنه إذا استطاع هذا التفاعل الذي كوّن دورة الاقتصاد الاجتماعية في أمة معينة، إذا استطاع أن ينمو باضطراد وتقدم سيطرة الإنسان على الطبيعة فيقيم تواصل العمران بين دورات عدة اقتصادية اجتماعية، فقد يولد متحد إقليمي بعد المتحد القومي وانطلاقاً منه، كما تعاني أوروبا اليوم، وقد نصل في حدود الإمكان والفرضية طبعاً، وعلى هذا الأساس تساءل سعاده في "نشوء الأمم" عن إمكان صيرورة الإنسانية "مجتمعاً واحداً في مستقبل العصور" (نشوء الأمم، ص. 79).

وهكذا نجد، بأن مفهوم الأمة العلمي الاجتماعي عند سعاده، هو مفهوم الوجود الاجتماعي النامي من ضمن الزمان والمكان. فهي ليست وجوداً فوق الزمان والمكان، كما في النظرة الرومانسية الشوفينية للشأن القومي. وهذه النظرة الاجتماعية للشأن القومي عند سعاده، كما أوضحها في كتابه العلمي "نشوء الأمم" بصورة خاصة، وفي العديد من مؤلفاته، هي نظرة تربط كلياً بين الشأن القومي والشأن الاجتماعي في وحدة عضوية. وهذا ينتج عنه، أن الثورة الاجتماعية تنطلق من الشأن القومي.

رابعاً: الثورة الاجتماعية بدءاً من المنطلق القومي وعلى أساس المقولة المدرحية.

هذا معلم تميّزت به الحركة القومية الاجتماعية في العالم كله. ففي العالم إما ثورات اجتماعية أنكرت الشأن القومي منطلقاً لها أو ثورات قومية لم يكن لها مضمون اجتماعي، فحاولت استعارته من هذه المدرسة أو تلك. ولعل التيارات القومية الأخرى غير الحركة السورية القومية الاجتماعية في العالم العربي تعطينا أكثر من مثل من دون أن نخوض في التفصيل، على كيف وقعت تلك الحركات في مأزق الفكر الاكلكتيكي لجهة تأثرها بالمدرسة الرومانسية للفكر القومي الأوروبي في تحديد الأمة بالعوامل النفسية من دون الوجود المادي (الجغرافي – الاقتصادي) ولأنها لم تستطع أن تقدم تحليلاً مادياً – روحياً للشأن القومي، واقتصرت على العوامل النفسية بمعطى رومانسي، فعندما واجهت الشأن الاجتماعي بمشكلاته الاقتصادية الحادة، اضطرت إلى استعارة النظرة الحتمية المادية لتفسير هذا الشأن فوقعت في التناقض الذاتي بين رومانسية الفكر القومي ومادية الفكر الاقتصادي. وكان أن عدداً من أحزابها اضطرت إلى التخلي عن المنطلق القومي، وإلى اعتماد الماركسية اللينينية، كما حدث في عدد من الحركات التي تعرفون.

إن الحركة السورية القومية الاجتماعية، تنطلق ثوريتها الاجتماعية من منطلقها القومي، لأن الأمة عندها هي دورة اجتماعية – اقتصادية، والشأن الاقتصادي هو "الرابطة الاجتماعية الأولى"، والأمة "وحدة العوامل المادية – النفسية". ولكن كيف ينسجم القول بوحدة الأمة والثورة الاجتماعية؟

إن مفهوم "الأمة مجتمع واحد" لا يقوم على الركود المستنقعي، بل يقوم في الحزب السوري القومي الاجتماعي على التفجّر الثوري البركاني. يقول سعاده "ما معنى الاخوة القومية حين أقول لك أنت أخي وأحرمك بالفعل

من حقوق الأخوة معي؟". "وكيف يمكن أن يكون للأخوة معنى مع الحرمان؟". الاخوة القومية عند سعاده مرتبطة بإزالة كل ما يفرز الحرمان فيصدع الاخوة القومية. وبالتالي هي تثور وترفض النظام الطائفي، والنظام الإقطاعي والنظام الرأسمالي والنظام العنصري، لأنها كلها أنظمة تفرز التمييز والحرمان بين المواطنين، كلها أنظمة الحرمان التي لا تتناسب مع الأخوة القومية.

فالأصل وحدة المجتمع، هذا هو الشأن الطبيعي الذي تفرضه وحدة الحياة القومية. ولكن أوضاع التجزئة الاجتماعية منافية لهذا الوجود الطبيعي. اذن يجب إسقاطها وإزالتها لتحقيق وحدة المجتمع الفعلية. في ضوء هذا المفهوم الثوري الواضح نفهم قول سعاده: "يجب علينا أن ننهض كأمة حية وأن نزيل من طريقنا جميع الصعوبات التي تعرقل أو تمنع نهوضنا. وأهمّ ما يجب أن نزيله من الصعوبات صعوبة الفتنة الدينية وصعوبة الفتنة الاجتماعية – الاقتصادية. وإزالتهما تكون باعتناق مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي الموحدة...".

كيف تزال صعوبة الفتنة الدينية؟ بإزالة النظام الطائفي وفصل الدين عن الدولة. وكيف تزال صعوبة الفتنة الاجتماعية – الاقتصادية بإلغاء الإقطاع وإسقاط سيطرة الرأسمال الفردي على الإنتاج. هذه هي مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي الموحدة. إنها لا توحّد على أساس الطائفية ولا توحّد على أساس الإقطاع والرأسمالية. إنها توحد على أساس إسقاط أنظمة الحرمان التي "تعرقل أو تمنع نهوضنا" لتقيم وحدة مجتمعنا المتحررة من تناقضات الفتنة بمظهريها المادي – الروحي.

ولأن الثورة القومية الاجتماعية تشمل العوامل المادية – النفسية، فهي بغنى عن أن تحقق ثورتها الاقتصادية ثم تتبعها بملحق هو ملحق الثورة الثقافية، كما حدث في مجتمعات اعتمدت الشأن الاقتصادي وحده منطلقاً. فثورتها الاجتماعية هي اقتصادية ثقافية في الوقت نفسه. تغير علاقات الإنتاج، ولكنها تغيّر الإنسان الذي يقوم على علاقات الإنتاج أيضاً، وهذه الثورة إذاً تتحقق في المجالين النفسي والمادي وهما متكاملان في كل قومي اجتماعي.

فهي في المجال النفسي تثور على الروابط الجزئية التي أفرزها عصر الانحطاط، على الطائفية والعنصرية والقبلية وهي مفرزات التجزئة الاجتماعية في عصر الانحطاط والتخلف التي يمكن تعليل بروزها بأنه عندما تغيب الرابطة الطبيعية الشاملة التي تربط المواطن بالوطن، تحلّ محلها في عصور التخلف والانحطاط، روابط جزئية مشوهة هي روابط العائلية أو الطائفية أو القبلية أو العنصرية. فالثورة الاجتماعية في الحركة القومية الاجتماعية تنطلق من الشأن القومي بالضرورة، لأنها إذ تعيد للرابطة القومية الأم مكانها في نفس المواطن الذي وعى هويته وعرف ارتباطه بالوطن دون شفاعة النسب العنصري أو القبلي أو الطائفة أو العائلة، يستطيع عندها أن يتحرر من الروابط الجزئية المشوهة التي أفرزها عصر الانحطاط بارتباطه بالرابطة الطبيعية التي هي رابطة الوعي بوحدة مجتمعه القومي في أرضه الواحدة وحياته الواحدة. من هنا، إن الثورة على مفرزات عصر الانحطاط التناحرية، لا تكون فقط بالمبادئ الإصلاحية التي تسمّي السلب: فصل الدين عن الدولة، إلغاء الحواجز بين الطوائف والمذاهب، بل ربط هذا السلب بالولاء الجديد الناتج عن الوعي القومي، بوعي الرابطة القومية الأم الطبيعية التي تشد المواطن إلى الوطن، فتنهار الروابط المرضية الجزئية المشبوهة التي أفرزها عصر الانحطاط لمصلحة رابطة الحياة الواحدة الصحية الطبيعية الأشمل.

من هنا، إن علمانية الحركة القومية الاجتماعية غير منفصلة عن علمية الشأن القومي في العقيدة القومية الاجتماعية. ومن هنا إن العلمانيات المطروحة دون ارتباط بالشأن القومي في مجتمعنا هي على طريق الأزياء المعاصرة، تبقى فارغة المضمون، ولا تستطيع أن تحقق التحرر الاجتماعي الكامل عند المواطنين، طالما لم تتبدّل مفاهيمهم الأساسية لعلاقتهم بمجتمعهم ووحدته القومية.

هذا من جهة الشأن النفسي، إلا أنه كما قلنا إذا كانت الأمة، بالتحديد القومي الاجتماعي، هي وجود مادي – نفسي، فإن الثورة في الحزب السوري القومي الاجتماعي هي ثورة مادية – نفسية، فالشأن المادي الذي تواجهه الحركة القومية الاجتماعية، هو الشأن الاقتصادي، وبالتخصيص الأضيق: الشأن الطبقي. وهنا لا بد من التمييز بين مفرزات عصر الانحطاط والتخلف كالقبلية والطائفية والعائلية والعنصرية وبين مفرزات العصر الصناعي الحديث، كالنزاع الطبقي. لانه، لا يمكن تصنيف النزاع الطبقي من مفرزات عصر الانحطاط وهو من الظاهرة التي تواجهها أرقى المجتمعات الصناعية.

النزاع الطبقي من مفرزات النظام المتخلف عن عصر الثورة الصناعية باستمرار علاقاته الفردية في السيطرة على نتائج هذه الثورة الجماعية. فالنزاع الطبقي نتيجة طبيعية لهذا التناقض وهو ليس سبباً لها. إن اجتثاثه لا يكون إلا باجتثاث أسبابه.

ولقد حدّد سعاده أسبابه في أنها في النظام الرأسمالي الذي "لم تكن له من نتيجة اجتماعية سوى الحفز على حرب الطبقات".

فلا يمكن شجب النزاع الطبقي على أساس السكوت عن مسبباته، عن "نظام الطبقات الرأسمالي" واستغلاله وسحقه للطبقات الأخرى، كما يقول سعاده.

خامساً: موقف الثورة القومية الاجتماعية من النظام الاجتماعي والنزاع الطبقي.

إن موقف الثورة القومية الاجتماعية من مشكلتي الظلم الاجتماعي والنزاع الطبقي هو ما نحاول إيضاحه هنا. ماذا تعني الوحدة القومية التي يدعو لها حزبنا؟

هل تعني سكوتنا عن الظلم الاجتماعي؟

هل نقول مع أحد القائلين: "حدس سعاده الأساسي حدس بطل قومي" وأن "الشأن الاقتصادي عنده كان شأناً تكنياً ولم يكن شأناً عقائدياً؟"، وأن ليس للحزب منطلقات نظرية في الاقتصاد ولا يجوز أن يكون له كذلك؟

وهل نقول بأن الحركة لا تتموقع في مواقع النضال الطبقي، لأنه نضال تناحري تخلفي؟

وهل نقول بأن الوحدة القومية عندنا تغني عن التناقضات الاجتماعية الطبقية أو تتخطاها أو تتجاهلها أو تحذفها؟

نعود إلى سعاده فعنده القول الفصل في كل هذه المواضيع. يقول سعاده: "إن الحزب السوري القومي الاجتماعي يريد وحدة قومية متينة تثبت بها الأمة السورية في معترك الحياة والتفوق، وهذه الوحدة القومية القوية لا يمكن أن تحصل ضمن نظام اقتصادي سيئ، كما أنه لا يمكن أن تحصل ضمن نظام اجتماعي سيئ، فإقامة العدل الاجتماعي – الحقوقي والعدل الاقتصادي – الحقوقي أمر ضروري لفلاح النهضة السورية القومية الاجتماعية".

هنا اذن لا وحدة قومية متينة حسب نص سعاده، في ظل نظام اقتصادي سيئ أو في ظل نظام اجتماعي سيئ. وبالتالي فإن الوحدة القومية الوحيدة المتينة هي التي تقوم على نظام اقتصادي جديد ونظام اجتماعي جديد. ومتى كانت الوحدة القومية مرتبطة جذرياً بالنظام الجديد، بحيث "لا يمكن أن تحصل ضمن نظام اقتصادي سيئ". أيمكن عندها القول بالوحدة القومية بمعزل عن النظام الاقتصادي؟

أيمكن اعتبار الشأن الاقتصادي شأناً ثانوياً "تكنياً"؟ أيمكن أن نتقدم في الشأن الاقتصادي من دون منطلقات واضحة طالما أن الوحدة القومية التي هي "الحدس الأساسي" لسعاده "لا يمكن أن تحصل ضمن نظام اقتصادي سيئ؟".

وما معنى "وحدة الروح" التي يظن البعض أنها شيء قائم خارج وبمعزل عن المشكلة الاجتماعية الاقتصادية وتحدياتها؟

إن وحدة الروح عند سعاده، والتي كانت موضوع خطابه في أول آذار 1948، عنت الوحدة النفسية التي تولّدها مبادئ الحزب في وجه التفسخ الطائفي المذهبي. يقول سعاده: "مَن كان يظن في هذه البلاد أنه يمكن أن يتكلم عدد كبير من طوائف متعددة في هذه البلاد كانت إلى هذه الساعة أمماً مستقلة... أن يتكلم عدد من هذه الطوائف بلسان واحد معبرين عن حقيقة واحدة هي حقيقة الأمة وغايتها العظمى إلى تحقيق مثلها السامية".

"نقول لهم الطوائف أصبحت كياناً قومياً واحداً، فقط".

هذه "وحدة الروح" التي صفّت التناحرات الطائفية، وأقامت الوحدة القومية مكانها. ولكن في حركة مادية – روحية، وحدة المجتمع لا تحقق فقط على الأساس الروحي بل لا بدّ من التكامل المادي – الروحي. يوضح ذلك سعاده في نص آخر هو خطابه في أيار 1949 في "الطلاب نقطة ارتكاز للعمل القومي الاجتماعي". ويتضح من هذا النص بأن عند سعاده مفهومين متكاملين لوحدة المجتمع، الوحدة الروحية والوحدة الاجتماعية – الاقتصادية وهو مفهوم الثورة بتكاملها المادي – الروحي.

يقول سعاده: "نسير إلى الحرب – (حرب التحرير) – ليس فقط جماعة واحدة من الوجهة الروحية بل من الوجهة الاجتماعية أيضاً، ليس لننصر إقطاعياً على إقطاعي أو رأسمالي بل لنكسب أرضاً لا يمكن أن نقيم فيها مستعبَدين من أنفسنا على أمتنا. نسير محققين انتصاراً لشعب حر يتجمّع تحت علم أمته ودولته بنظام واحد ومجد واحد للجميع".

ففي حرب التحرير، في المواجهة مع العدو الخارجي، قصد سعاده أن نسير موحدين من الناحية الروحية، وحدة الروح التي تحدثنا عنها، لا تفرقنا الطوائف المذهبية، وموحّدين من الوجهة الاجتماعية، وحدة لا تقوم

على السكوت على الظلم الاجتماعي على تعايش الإقطاع والرأسمالية مع الشعب المسحوق، الشعب الكادح المنتج بفلاحيه وعماله ومثقفيه، بل وحدة تقوم لا على نصرة إقطاعي أو رأسمالي بل على كسب أرض لا يمكن أن نقيم فيها مستعبدين من أنفسنا على أمتنا. فالثورة الاجتماعية في سبيل النظام الجديد إسقاط الإقطاع والرأسمالية جزء لا يتجزأ من حرب التحرير القومية عند سعاده.

النظام الجديد ووحدتنا الروحية – الاجتماعية توأمان لا ينفصلان إلا لدى الذين عميت أبصارهم عن إدراك الحقيقة.

والوحدة الروحية ليست بديلاً عن الوحدة الاجتماعية – الاقتصادية بل مكمل لها. وكل غموض في الشأن الاقتصادي، هو لمصلحة الرأسمالية المتحكمة والإقطاعية المتجبرة التي تستفيد من هذا الغموض. يقول سعاده في هذا الموضوع، حالة المحافظين والإقطاعيين في بريطانيا الذين كانوا يرفضون وضوح المفاهيم الاشتراكية في الحكم: "إن الشعوب كانت متخمة من الديمقراطية الرأسمالية التي أصبحت كابوس العامل والفلاح. وإن حالة الحرب هي التي تضغط على بريطانيا والولايات المتحدة للاهتمام بالناحية الاجتماعية من الحرب. وإن المحافظين الإقطاعيين والرأسماليين في بريطانيا والرأسماليين في الولايات المتحدة لا يعجبهم تبديل الديمقراطية في أشكالها التي سهلت لهم الوصول إلى ثرواتهم الفاحشة من أسهل الطرق". "فإن الحركة الفكرية الجديدة في بريطانيا" يقول سعاده "لم يمكن أن تنشأ قبل دخول العمال والاشتراكيين إلى الحكم. وإن بريطانيا كانت حتى الآن تحارب بلا روح ولا قوة غير الاستمرار"، وإن الصيحة الديمقراطية لم تبرد من قلب الشعب البريطاني غليله وإن الدول الديمقراطية تحتاج إلى عقيدة تجد فيها خلاصها".

فالرأسماليون والمحافظون لا يريدون إيضاح المضامين الاقتصادية وبريطانيا كانت تحارب بلا روح قبل أن يحاول العمال والاشتراكيون إعطاءها مضموناً اجتماعياً اقتصادياً للحكم. ولكن هذا المثل لا يقتصر على بريطانيا في الحرب. إن سعاده يزهو ويفخر بالمقارنة أن حزبه امتلك "العقيدة الاجتماعية" منذ نشوئه فيقول **"وإن ما يبحث ساسة بريطانيا والولايات المتحدة عنه اليوم، من أجل رفع المعنويات للحرب – (أي العقيدة الاجتماعية الاقتصادية) – أو من أجل الوصول إلى حالة ترضي بعض أحزابها، قد وضع الحزب السوري القومي الاجتماعي قواعده منذ نشأته".**

ما هو هذا الشأن؟ يقول سعاده: "لقد أوجد الحزب عقيدته الاجتماعية منذ تأسيسه". ويحددها سعاده بأنها المبدأ الاقتصادي الرابع الذي يقول "بإلغاء الإقطاع وتنظيم الاقتصاد على أساس الإنتاج".

اذاً، الرأسمالية لا تريد وضوحاً في الشأن الاقتصادي. لأن الغموض واستمرار الحالة الراهنة هما في مصلحتها، وإذاً سعاده يؤكد بأن للحزب عقيدته الاجتماعية، أي منطلقه في الشأن الاقتصادي منذ البدء. فالاقتصاد عند سعاده ليس شأنا تكنياً بل هو عقيدة اجتماعية.

ما هي العقيدة الاجتماعية الاقتصادية التي يدعو لها سعاده وموقفها من النظام الرأسمالي؟ إن سعاده يرفض النظام الرأسمالي لتناقضاته الموضوعية، لأنه لم تكن له "نتيجة اجتماعية غير الحفز على نظام حرب الطبقات"، ولكون طبقات ساحقة وطبقات مسحوقة نفسياً ومادياً، على حد تعبير سعاده، ولأنه "لم يكن نظاماً صالحاً للبقاء وأحدث ولم يزل يحدث تشنجات واضطرابات في المجتمع". هذه كلها أقوال سعاده.

هل هذا يؤدي بنا إلى الاكتفاء بالقول بأن سعاده "لا يأخذ بالنظام الرأسمالي الليبرالي"، ونكتفي بهذا المقدار؟ هل يجوز لنا القول إن سعاده لا يأخذ بالنظام الطائفي لنعبر عن موقف سعاده من الطائفية؟ كلا. إن سعاده يرفض النظام الرأسمالي وليس فقط لا يأخذ به؛ إنه يدينه لأنه نظام غير صالح للبقاء، لكون التناقضات الطبقية، والسحق النفسي والمادي للكادحين، وبالإضافة إلى ذلك كله، يدينه لا لمجرد تناقضاته الذاتية بل أيضاً لارتباطه في الأمم المتخلفة اقتصادياً بالنظام الإمبريالي العالمي الذي وصفه بنظام الطبقات الانترنسيوني، ويدعو العمال والمزارعين إلى الصراع المزدوج ضد الإقطاع والرأسمال المحليين المتحالفين مع الإقطاع والرأسمال الخارجيين. إذاً، لا مهاودة في صراعنا القومي الاجتماعي مع النظام الرأسمالي، كما يقول سعاده بالحرف.

وفي "نشوء الأمم" يعتبر سعاده أن الثورة الصناعية وضعت الاجتماع البشري على أساس جديد. وهذا الأساس هو جماعية الإنتاج. وهذا يواجه في النظام الرأسمالي تناقضاً مع تملك الأفراد لوسائل الإنتاج. يقول سعاده في المحاضرة الثامنة بالحرف: "ولكن بعض الناس الذين استعملوا الآلة الحديثة رأوا أن يستعبدوا الناس الذين لم يكن ما يمكنهم من الحيازة على الآلات الضخمة الحديثة". ويقول "إن نشوء الحالة الاقتصادية ليس من الآلة، بل من النظام السيئ الذي تنميه النظرة الفردية اللامسؤولة عن المصير القومي باستخدام الآلة الحديثة". ويقول: "ونهضتنا تريد أن تضع حداً لهذا الاستعباد ولأصحاب الرساميل الفردية الذين يستعبدون بواسطتها الناس".

اذن، تملُّك الأفراد وسائل الإنتاج في النظام الصناعي الحديث الذي أصبح جماعياً، يؤدي إلى استعباد أصحاب الرساميل الفردية للناس. ويعلن سعاده رفضه "للاستعباد الداخلي الذي اتخذ الرأسمالية والإقطاعية واسطة وشكلاً"، كما يعلن رفضه للاستعباد الخارجي.

ما هو البديل الذي تقدّمه حركة ترفض النظام الرأسمالي؟ الرفض هو حالة السلب ولكن لا بد لكل سلب من ايجاب بديل. هل نرفض النظام الرأسمالي ثم نعود إلى الرأسمالية؟ وما هو موقفنا من الطبقة الرأسمالية والطبقة الإقطاعية؟ وما هو موقفنا من الطبقة الرأسمالية والطبقة الإقطاعية؟ وما هو موقفنا بالتالي من التناقضات الطبقية؟

إن سعاده يعلن الحركة أنها اجتماعية في نظرتها الأساسية. في الشأن النفسي يعلن بأن كل ما فينا هو للأمة، حتى الدماء التي تجري في عروقنا. فهل حقا أن كل ما فينا هو للامة إلا أموالنا؟ وهل حقاً أننا في الشأن النفسي نعطي دماءنا للامة ولا تكون الأمة سيدة على وسائل الإنتاج المادية؟ وهل الاجتماعية شأن نفسي وليست شأناً مادياً – نفسياً في حركة لها مفهومها المادي - النفسي المتكامل؟ وهل نعزل الشأن الاقتصادي وهو الرابطة الاجتماعية الأولى عند سعاده عن معيار ثوريتنا، فنبقيه في نطاق الفردية المتناقضة مع اجتماعيتنا؟ هذا من ناحية منطلقات الحركة الأساسية الفكرية والمبدئية، أما من ناحية التحليل العلمي الذي قدّمه سعاده فقد رأينا من النصوص التي تلوتُ، بأن النظام الرأسمالي والذي يكرّس ملكية الأفراد لوسائل الإنتاج نظام نتجت عنه التناقضات الطبقية، حرب الطبقات سحق طبقة لطبقة، أي أنه النظام المسؤول عن النزاع الطبقي واستمراره، فإذا رفضنا النزاع الطبقي فيعني بالضرورة لا رفضه كنتيجة اجتماعية موضوعية أفرزها نظام فاسد، بل النضال لإسقاط ذلك النظام واجتثاث أسباب التناقضات الطبقية في استغلال الأفراد الرأسماليين للجماعة المنتجة.

اذن ما هو البديل؟ هو اجتماعيتنا المطبقة على الاقتصاد. البديل لا يمكن أن يكون خارج هذه الاجتماعية. ولا يمكن لحركة تقول بالاجتماعية في إطلاقيتها الشاملة الشأنين النفسي والمادي، أن تكون فردية في الاقتصاد واجتماعية في القيم النفسية. إن هذا تناقض غير موجود في الحزب السوري القومي الاجتماعي. إن ملكية المجتمع لوسائل الإنتاج أمر مقرر عند سعاده، لأنه يعتبر حتى في مرحلة الائتمان، الأفراد مؤتمنون من قبل المجتمع الذي هو المالك الدائم، ولأن الرأسمال عنده هو ملك قومي عام مبدئياً، لأنه حصيلة الإنتاج الذي هو جهد مشترك. فالأصل عند سعاده هو المجتمع، هو المالك لوسائل الإنتاج والرأسمال. هذه هي القاعدة الأم لكل نظرتنا الاقتصادية.

لكننا اذ نؤكد ملكية المجتمع لوسائل الإنتاج، نختلف عن النظرات الدوغماتية في الاقتصاد بأننا نترك التفاصيل والأشكال لظروف المجتمع ومرحلة تطوّره ولحاجاته ولمعايير وفرة الإنتاج، حيث إن الملكية العامة لوسائل الإنتاج قد تحدث أيضاً مرحلياً وتدريجياً، كي لا تصطدم بوفرة الإنتاجـ وقد تحدث بأشكال مختلفة. فليس التأميم مثلاً بالضرورة هو الشكل الأوحد أو الأنسب، بل هناك التعاونيات بين المنتجين، وغيرها من الأشكال التي تحتاج إلى أبحاث تفصيلية. المهم المبدأ الواضح المقرّر بنصوص من سعاده: الجماعة تملك وسائل الإنتاج، والاقتصاد القومي يخضع للأمة، للجماعة، لا للأفراد الرأسماليين.

أما القول بأن الإنسان الذي يتغير نفسياً ومناقبياً في الحزب السوري القومي الاجتماعي، الإنسان القومي الاجتماعي، يمكن أن يكون مالكاً لوسائل الإنتاج بغير العقلية الرأسمالية، فتفتيت للحقيقة إلى أجزاء مبعثرة متناقضة، لأنه واضح أن النهضة – كما بدأنا في المنطلق – هي بناء الإنسان وبناء النظام، وبأن النهضة هي شأن نفسي وشأن مادي في الوقت نفسه. ولا نتصور بأن المناقب القومية الاجتماعية هي في أن يبقى كما قال سعاده "أناس في النعيم وأناس في الجحيم"، رأسمالي يملك وسائل الإنتاج وعامل وفلاح مسحوقان ومجردان من هذه الملكية والمشاركة، وكل ما يفعل المالك أن يتصدق أكثر على الكادح المسكين ببعض فتات موائده وأن يحييه بابتسامة، وأن يرق له قلبه اذا مرض طفله.

يرفض سعاده بنصوص واضحة أن يكون هذا شأن العمال والفلاحين مع أصحاب الرساميل ويقول بالحرف الواحد: "إن هذه الحركة هي حركة الشعب، لأنها حركة العمال والفلاحين الكادحين الذين حرّرتهم القومية الاجتماعية من الخمول والذل والخذلان لينتجوا بأيديهم ومعاولهم خير شعبهم، ولينالوا بفضل جهادهم القومي الاجتماعي حقوق حياتهم الجيدة التي لا يمكن أن يمنّ بها عليهم أحد من الإقطاعيين والمشعوذين ولا يليق بإبائهم وعزة نفوسهم أن يقبلوها منة وتحناناً من إقطاعي أو رأسمالي أو مشعوذ..".

المناقب القومية الاجتماعية، أجل أيها السادة، تغير الإنسان تغييراً جذرياً ثورياً لا ليرضى بالاستمرار بالنظام والأشكال القديمة الفردية والطبقية المفرزة للاستغلال والسحق النفسي – المادي لمجموع مواطنيه بل ليثور عليها. المناقب القومية الاجتماعية تجعل رأسمالياً أو إقطاعياً دخلت إلى نفسه أنوار النهضة أن ينتفض على إقطاعيته ورأسماليته وينضم إلى صفوف الثورة عاملاً لدك النظام الإقطاعي والرأسمالي وإقامة الاشتراكية القومية الاجتماعية. الشأن النفسي عندنا جزء من المقولة الثورية شرط أن لا يكون له طابع المناقب الطوباوية الفارغة التي تبقي المستغل في استغلاله والمستغَل (بفتح الحركة) في جحيمه. المناقب الثورية تكون لها نتائج ثورية على صعيد العلاقات الاجتماعية والإنتاجية.

ما هو موقفنا من الفرز الطبقي والتناقضات الطبقية؟ وهل ندخلها في مقولتنا الثورية؟ الأصل، كما قلنا، وحدة المجتمع القومي، وحدة حياته في مزيجه السلالي ووحدة أرضه وموارده، ووحدة تراثه واستمراره وتاريخه. والثورة القومية الاجتماعية تنطلق من هذه الوحدة لرفض أوضاع التجزئة الاجتماعية ليس على أساس تجاهل مسبباتها وإقامة الظلم الطائفي أو الطبقي المزيّف بل على أساس اجتثاث أسباب الظلم الاجتماعي في أنظمة الحرمان التي تتنافى مع الأخوة القومية. فوحدة المجتمع تتحقق بالنظام الجديد "لا بالنظام الاقتصادي السيئ" ولا "بالنظام الاجتماعي السيئ".

من هنا، إن سعاده يعتبر النزاع الطبقي – نظام حرب الطبقات – كما يسمّيه، من مفرزات النظام الرأسمالي السيئ، لأن الاستغلال يؤدي إلى هذه النتيجة المرضية. فالثورة على النظام الرأسمالي جزء من ثورتنا.

ولكن إلى مَن يتوجه سعاده بالثورة؟ صحيح انه يتوجه إلى الشعب، إلى الأمة، بحاضرها ومستقبلها وتاريخها القديم، إلى الأمة كوجود ثابت مستمر، ولكن ثمة فئات من الأمة وهي المستفيدة من الحالة السيئة الراهنة لا بد من محاربتها بعنف طالما تتمسك بالوضع السيئ القائم. فسعاده لا يفصل في حربه بين الإقطاع والإقطاعيين، بين الرأسمالية والرأسماليين طالما هؤلاء يدافعون عن النظام القديم.

ولا بد من التوجه إلى المسحوقين نفسياً ومادياً، لأن فيهم تكمن إمكانات الثورة لتفجيرها. وسعاده واضح في هذا المنحى وضوحاً كلياً، فالفرز الثوري عنده لا يلتزم حدود الفرز الطبقي الضيقة، ولكنه يأخذه في الاعتبار. بنصوص عديدة منه نستطيع أن نتبين مادة الثورة عند سعاده: "نحن ننهض من صميم الشعب، من عماله وفلاحيه الكادحين ومن أصحاب المهن الحرة، ومن المثقفين وأصحاب الاختصاص، شاعرين بآلام الشعب مدركين قضيته العظمى واعين حقيقته" (13 نيسان 1949).

ويقول في مكان آخر: "إن هذه الحركة هي حركة الشعب، لأنها حركة العمال والفلاحين الكادحين... إنها حركة الشعب لأنها حركة أصحاب المهن الحرة والمثقفين الذين يعملون ليل نهار بالإنتاج الذي لا يدعمه رأسمال ولا تحميه حكومة". من هذين النصين المختلفين عند سعاده، ومن نص أساسي هو نداء الأول من أيار 1949 الذي يعتبر "المنفيستو" الاقتصادي الاجتماعي للنهضة القومية الاجتماعية، يتوجّه سعاده بقوله:

"أيّها العمال والفلاحون السوريون،

يا أصحاب الفنون والحرف.

أيها المنتجون علماً وفكراً وغلالاً وصناعة، انتم الأمة خلقاً وإنتاجاً وتشييداً، ولكن خلقكم مندثر وإنتاجكم مبعثر، وعمرانكم مهدم في الوضع اللاقومي الاجتماعي الذي ساد البلاد". ما هو هذا الوضع؟ يتابع سعاده: "ما أعظم صبركم على الرأسمالي الذي يحوّل الآلات التي تصنعونها بصبركم ومهارتكم ضدكم، ينتزع سلاحكم من أيديكم ويردّه ضدكم، وما أشد صبركم على الإقطاعي بجمعه الخيرات التي تنتجونها بعرق جباهكم ليحتكرها ويحرمكم حق الحياة". "وما أعظم جَلَدكم تجاه السياسي الشخصي الذي يصير شارعاً تجارياً يبيع نتاج فنونكم وحرفكم للشركات الأجنبية الرأسمال التي تقيم سلطانها الاستعماري في أرضكم.

"وما أحقر الحياة التي تحيونها بالكدح والشقاء، الأمراض تساوركم والإعياء يلازمكم والازدراء يحدق بكم، فكأنكم عبء على الحياة والحياة تفيض من در معاولكم ومطارقكم!

"هذه هي حالكم، تنشئون الخير ليتمتع به الإقطاعي من دونكم أنتم، وأنتم معظم الشعب، وتبنون وتصنعون ليتاجر ببنيانكم وصناعتكم الرأسمالي النهم وتشيدون العظمة لتجازوا بالحقارة. إنها حال يجب أن يوضع لها حد وأن تتغير".

هذه نصوص واضحة من سعاده تعيّن مادة الثورة. فالحركة القومية الاجتماعية تتوجه إلى العمال والكادحين، والى المثقفين وأصحاب المهن والاختصاص، أي إلى المنتجين عقلاً وساعداً، غلالاً وصناعة وفكراً، وتعتبر أنه في الطرف الآخر الرأسمالي المستغلّ والإقطاعي المتحكم والسياسي الشخصي الذي له مصالح تجارية متحكمة. إن سعاده يتوجّه إلى "معظم الشعب"، حسب تعبيره، ضد الفئة الإقطاعية الرأسمالية المتحكمة العميلة. وهذا فرز ثوري واضح عند سعاده، ولا يمكن على أساس وحدة المجتمع أن ترضى الحركة القومية الاجتماعية بوحدة الذئاب وضحاياها، بوحدة الاستغلال والمستغلين، إنها تريد إسقاط أنظمة الظلم الطبقي والاستغلال على وسائل إنتاجها ولمصلحة العدل الاجتماعي الاقتصادي الحقوقي.

سادساً: المفهوم القومي الاجتماعي الثوري للمعادلة الثورية المركبة.

إن المفهوم القومي الاجتماعي الثوري يختلف عن المفهوم الماركسي في أنه لا يقيم تحالفاً طبقياً بين العمال والفلاحين والبورجوازية الصغيرة (المثقفين وأصحاب المهن)، ليفسر كيف اعتمدت الماركسية في التطبيق الثوري هذه الطبقات، رغم أنها في الأصل انطلقت من البروليتاريا وحدها، بل يعتبر جميع هؤلاء المنتجين عقلاً وساعداً، هم مادة الثورة، لأنهم المسحوقون نفسيا والعمال والفلاحون مسحوقون ماديا والحركة التي مقولتها الثورية مادية – نفسية تتوجه إلى جميع المسحوقين مادياً نفسياً وهم "معظم الشعب". والمفهوم القومي الاجتماعي الثوري لا يناضل لإسقاط حكم طبقة أو طبقات بل لإسقاط حكم الطبقات المستغلة لمصلحة مجتمع موحد زالت منه الطبقية والاستغلال. انه مفهوم لا ينطلق من التناقضات الطبقية على أساس العدمية بل ينطلق من وحدة المجتمع لاجتثاث التناقضات الطبقية لمصلحة "وحدة قومية متينة" لا تقوم "ولا يمكن أن تقوم" مع استمرار التناقضات الطبقية التي أفرزها الظلم الاجتماعي في أنظمة القهر الرأسمالي والإقطاعي.

إن هذا المفهوم القومي الاجتماعي الثوري المادي – نفسي. فهو لا يأخذ بالحتمية المادية التي تعتبر أن ثمة رسالة تاريخية لطبقة من الطبقات على أساس الحتمية الثورية. إن تطور المجتمعات الحديث لأكبر دليل على صحة استشراف الحركة القومية الاجتماعية. ذلك أن البركان الثوري لم ينفجر حسبما توقعت الماركسية في نظرتها الحتمية المادية، من الغرب الصناعي المتقدّم. فالغرب الصناعي المتقدّم ركدت الثورة فيه وتلاشت. والبروليتاريا تدجّنت وحتى آخر التحليلات الماركسية اللينينية. بدءاً من المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي

السوفياتي، اعتبرت بالإمكان، بل أعطت الأرجحية للانتقال السلمي في تلك المجتمعات من الرأسمالية إلى الاشتراكية، وتجنب الطريق العنفي الثوري في المجتمعات الصناعية المتقدمة حتى فاجأتها ظاهرة الانتفاضة الطالبية 1968 ووقفت إلى يسار الحركة الشيوعية والبروليتاريا الصناعية التي تدجّنت في أوضاع دولة الرفاه والخدمات الاجتماعية في الغرب. فتأكد أن السحق النفسي قد يؤدي إلى انفجارات في المجتمع كما يؤدي السحق المادي.

اذن مع أخذ بالاعتبار الكامل لأهمية السحق المادي، ومع أخذ الاعتبار الكامل للتناقضات الطبقية في المجتمع إلا أن المعادلة الثورية في الحركة القومية الاجتماعية أشمل من التناقضات الطبقية وتدخل فيها عوامل عديدة انطلاقاً من مفهومها المادي – النفسي (المدرحي) المتكامل.

فهي أولاً لا تؤمن بوجود ثورية عفوية ولا برسالة تاريخية لطبقة من الطبقات. إن السحق المادي يقدم إمكان الثورة، ولكن من دون الوعي والتنظيم الثوريين تبقى الطبقات المسحوقة أسيرة النظام أو يدجنها النظام. إن الحركة القومية الاجتماعية تتوجّه إلى المسحوقين ماديا ونفسيا كإمكان، ولكن ليصبحوا مادة الثورة، لا بد من عقدنتهم حتى يتكامل بناؤهم النفسي الثوري، حتى تتكامل العوامل المادية – النفسية فيهم للثورة. واذا كان المسحوقون مادياً ينقصهم الحافز النفسي الذي توفره عقيدة ثورية حتى يثوروا، فان الطبقة المستغلة التي يتوجه اليها سعاده بالحرب ويدعوها "بأعداء الأمة" ويخبرها بين سلم تسلم فيه "للشعب بحق الأمة، وتعترف بحق العمال والفلاحين، بحق هذا المجموع العظيم، في الحياة والعز". بين سلم تسلم للشعب فيه "بسحق إحدى القوتين القوة الأخرى سحقاً تاماً لا قيام لها بعده".

إن هذه الطبقة المستغلة التي يعتبرها سعاده "اعداء الأمة" بحكم مصالحها في النظام الرأسمالي الإقطاعي هي عدوة الثورة. إلا أن الثورة تتوجّه إلى أفرادها بخيار ألمحنا إليه فوق، خيار محدود ومحدد أن يثور أفرادها على إقطاعيتهم ورأسماليتهم وينضموا إلى الثورة "ويسلم الرأسماليون الجشعون لحق الشعب الذي يمتصون دماءه ويرتدع الإقطاعي الذي باع الوطن ويعترف بحق الفلاح الكادح". صفوف الثورة تتسع لرأسمالي أو إقطاعي طلّق وضعه الطبقي الاستغلالي وانضم إليها ضد وضعه السابق، ولكنها لا تتسع له وهو متمسك بإقطاعه ورأسماله بل تحاربه حتى الأخير. فالثورة لا يمكن أن تساوم على مقاصدها وغايتها أحداً. فهي لا تقبل أنصاف الحلول بأن تخفف من ثوريتها حتى يقبل بها الرأسماليون، بل هي تشترط أن يتم قبولها كما هي. وعندها على الرأسمالي الذي ينسلخ عن طبقته ومصالحها لينضم إلى الثورة أن يقبل بكل مبادئها ومناهجها وغايتها ضد طبقته وضد الظلم الطبقي وضد النظام الطبقي الذي كان من المستفيدين منه. والفارق بين توجه الثورة القومية الاجتماعية إلى الكادحين والمنتجين وتوجّهها إلى الرأسماليين والإقطاعيين، هو أنه في الحالة الأولى تتوجّه إلى مسحوقين مادياً لتعطيهم الحافز النفسي فتتكامل الثورة عندهم، بينما في الحالة الثانية تتوجّه إلى مَن مصالحهم المادية مناقضة للثورة عاملة بالحافز النفسي وحده لينفكوا من أسر هذه المصالح ويثوروا عليها، محاولة بالتالي بجزء من ثوريتها أن تكسبهم. لذلك بينما مادة الثورة الأساسية من الكادحين، فإن الذين ينضمون اليها من الفئة الأخيرة هم أفراد قلائل بلغ وعيهم وحسهم حداً من الكمال مكّنهم من رفض مصالحهم الطبقية المادية والانتفاض عليها. وهي حالات نادرة لها صفة الاستثناء. هذا هو الفرز الثوري على الأساس المادي النفسي.

ومن هنا، فإن الثورة ضد الطبقة الرأسمالية الإقطاعية كما هي ضد النظام الرأسمالي الإقطاعي، من دون أن تستثني أفراداً قلائل قد تربحهم بالوعي الثوري ضد مصالحهم المادية، وهي حالة صعبة وشبه مستحيلة، وهي في توجّهها الأساسي تتوجّه إلى المنتجين والكادحين إلى "معظم الشعب"، إلى الفلاحين والعمال والمثقفين وأصحاب المهن والاختصاص. إن الثورية المعاصرة أكدت سقوط فكرة الرسالة التاريخية لطبقة من الطبقات، كما أكدت انتفاء الحتمية المادية. فقد انفجرت براكينها من الشرق المتخلف عن الصناعة والذي لم يعرف قيام البروليتاريا بل كان من شروط الثورات التي قامت فيه، التصنيع الذي عنه تنبثق البروليتاريا بعد أن تقوم الثورة الصناعية وهذه الثورات التي انطلقت في الشرق بدءاً من روسيا حتى الصين ففيتنام دخلت فيها على صعيد التشريح الاجتماعي عوامل أخرى غير التناقضات الطبقية: منها جيش مهزوم في حرب قومية، ومنا وعي ثوري وتنظيم ثوري فرض إرادة إنسانية ثورية على الشروط المادية، كما مرّ معنا بالتصنيع الذي نتج عن تلك الثورات.

وهنا يستوقفنا عاملان: الحرب القومية والوعي والتنظيم الثوريان. بالنسبة للعامل الأول، نستطيع القول بأنه لم تندلع في العصر الحديث ثورة اجتماعية واحدة بمعزل عن حرب تحرير قومية أو حرب قومية. ولينين نفسه كان في آخر حياته قد أكد استحالة اندلاع "ثورة اجتماعية خالصة". فالثورات الاشتراكية المعاصرة كلها انفجرت من رحم حرب قومية ولم تنفجر ثورة اشتراكية واحدة، حيث كان مقدراً أن تنفجر من رحم التناقضات الطبقية وحدها في الأمم الصناعية المتقدّمة.

إن الظاهرة المعاصرة تؤكد صوابية النظرة القومية الاجتماعية لجهة التحام الثورة الاجتماعية الاقتصادية بالثورة القومية، كما تؤكد من ناحية ثانية أن الثورات القومية المعاصرة في الأمم المتخلفة لم يعد بالإمكان أن تكون ذات مضمون ليبرالي أو رأسمالي بل ثورات قومية – اشتراكية، وبصورة أشمل قومية اجتماعية، لأن الرأسمالي في هذه الأمم كما وصفه سعاده في أمتنا "هو أشد الناس ابتعاداً عن الاهتمام بالقضايا القومية". وهو يتحالف مع الإمبريالية العالمية ضد مصالح بلاده ومجتمعه.

إذاً، فالمعادلة القومية الاجتماعية أشمل من التحليل الذي يحصر نفسه بالتناقضات الطبقية من دون شبكة العوامل التي تفجر الثورة. وعلى هذا الأساس لا يعود النضال القومي، بهذا المفهوم القومي الاجتماعي الثوري المتقدم، نضالاً وطنياً ديموقراطياً مرحلياً سابقاً للثورة الاشتراكية. لأن الثورتين الاجتماعية والقومية عملية واحدة مركبة، ولأن الثورة القومية الاجتماعية هي كل شمولي يتضمّن الاشتراكية كما يتضمن غيرها من شؤون نفسية واجتماعية. إن النضال الوطني الديمقراطي هو مرحلة سابقة لكل ثورة شاملة، هو مرحلة سابقة للثورة القومية الاجتماعية، كما سنبين في فصل الاشتراتيجية الثورية.

أما عامل الوعي والتنظيم الثوري، فعلى الصعيد الاقتصادي يتأكد لنا بالخبرة العملية أن الطبقات المحرومة إذا لم تثوَّر تبقى راكدة. وما رأيكم بنقاباتنا في لبنان التي هي احتياطي للنظام الرجعي لافتقارها إلى العقدنة والوعي الثوري والتنظيم الثوري ولعدم ارتباطها بحركة عقائدية ثورية؟ لولا عامل الوعي والتنظيم الثوري لما قامت ثورة واحدة في العالم. لقد قال لينين بأنه "يسبح ضد التاريخ" بمعنى أن الثورة البلشفية ما كانت لتقوم لولا الإرادة والوعي والتنظيم، لولا فعل الإنسان.

وفي هذه المعادلة الثورية المركبة والشاملة الشأنين النفسي والمادي عند سعاده، يدخل أمر هو في نظر السطحيين شأن متخلّف عفا عليه الزمن. إن هذا الإصرار على بعث تراثنا القومي في المبدأ الأساسي السابع، هذا الإصرار عند سعاده على وصلنا بجذورنا الحضارية، هذا النبش لهياكل العظمة المطمورة من تاريخنا ما القصد من هذا كله؟ يطرح السؤال: أتراها غابرة أم سلفية أم تخبطاً في الماضي؟ كلا، أيها السادة، هنا الحافز النفسي الذي يدخل في معادلة الثورة المادية – النفسية. إنساننا الذي عاش في الذل والمسكنة في عصر الانحطاط، يحكمه المماليك والعثمانيون، تحكمه سرايات المفوض السامي وخلفاؤه من عهود الاستقلال والاستغلال، صعاليك المدرسة العثملية الانتدابية، وإرثهم وخلفاؤهم جميعاً، والذي أصبح إنسانا طائفيا أو إقطاعيا أو زلمة إقطاعي، مسحوقاً في معمل أو مزرعة، متخلفا، مدارسه زرائب كما قال أحد نواب الجنوب ثم منح الحكومة الثقة، مستوصفاته وهمية، كما قال ذلك النائب أيضاً. إنساننا هذا الممعوس المسحوق، عندما يعرف بأن هذا وضع الانحطاط الطارئ على أمته، وأنه من أمة عظيمة وعت وعقلت ومدّنت وأبحرت وعلمت العالم، يبدأ الحافز الثوري في نفس الملتزم بالتحقيق الثوري فيعمل على قلب هذا الحاضر الأسود ليقيم المستقبل الأعظم المرتبط بالماضي العظيم. من هنا فإن وعينا لتراثنا القومي هو جزء من المقولة الثورية، ومن هنا فإن العوامل النفسية يمكن أن تفعل في المقولة الثورية القومية الاجتماعية التي هي مقولة مادية نفسية متكاملة.

وهذه الأمة التي وعت حقيقتها من ضمن هذا الطرح، أمة تريد أن تخوض الحرب، حرب التحرير، ولكنها ليست أمة مهووسة بالحرب. فالحرب وسيلة عندها لقيام السلم العادل. يقول سعاده: "إننا لا نريد الاعتداء على أحد، ولكننا نأبى أن نكون طعاماً للأمم الأخرى". إن رفضنا للسلم الذي يطرحه الأقوياء على أساس الاغتصاب والتجزئة والعدوان على أرضنا لا يعني أننا أمة لا تحبّ السلام أو أننا حركة مهووسة بالحرب، ولكنها حربنا القومية المقدسة في سبيل سلم عادل لا يكون لنا فيه أمم جوارح وأمم ضحايا بل تكون فيه أسرة إنسانية متشاركة متعاونة متعاطفة".

هذه هي منطلقات حزبنا الفكرية التي في ضوئها نفهم استراتيجيته الثورية.

القسم الثاني: الاستراتيجية الثورية للحزب القومي

في ضوء هذا الشمول الذي تطرحه الحركة القومية الاجتماعية بثوريتها وضع سعاده واستشرف معالم الاستراتيجية الثورية الكاملة. ولا بد هنا من أن ألمح إلى أن الاستراتيجية الثورية عبارة نحياها أكثر ما نكون منذ نكبة حزيران في أمتنا والعالم العربي. فلقد خرج الإنسان عندنا من تلك النكبة وقد اختمرت نفسه بالثورة والرفض اذ انهارت أمام عينيه وبصيرته حتى الأساطير والأماني العذاب التي أفرغ فيها شحنته النفسية

واطمأن إلى أن سواه يمكن أن يحارب عنه، أنظمة وقادة ورجالاً كباراً، ولكنّه وجد في الأخير أن المسؤوليات التاريخية كلها تعود فتقذف على منكبيه. فكان الرفض وكانت الثورية.

وفي ضوء النكبة أخذنا نسمع بالاستراتيجيات الثورية التي تقوم أول ما تقوم على فرز الأعداء والأصدقاء، الأعداء بصورة خاصة: الاستعمار والصهيونية في الخارج ممثلان بإسرائيل والصهيونية والمعسكر الاستعماري على رأسه الولايات المتحدة الأميركية، والرجعة الداخلية ممثلة بالإقطاع والرأسمال والتحالف الطائفي القبلي المعروف. هذه الاستراتيجية الثورية أيها السادة، التي طرحت بعد حزيران، أدت إلى النتائج التالية:

من نتائج نكبة حزيران:

الاستراتيجيات الثورية الجديدة

أولاً:

تبلور فكر المقاومة الفلسطينية ووضوح استراتيجيتها. ففي الواقع إن المقاومة الفلسطينية البطلة التي أنقذت شرف أمتنا وشرف العالم العربي، بعد النكبة بصمودها البطولي وبإعلانها الرفض لنتائج الهزيمة، واتخاذ الكفاح المسلح طريقاً للتحرير، المقاومة الفلسطينية بدأت تتبلور استراتيجيتها في لهب الممارسة والاختبار. فقد كانت في أكثر فصائلها توجه بنادقها إلى العدو وتعتقد أن بإمكانها مهادنة الأنظمة، حتى وجدت أن هذا غير ممكن وتعرّضت لمحاولات التصفية الدموية والطعن بالظهر. فوضح لها أن الرجعة الداخلية حليف للاستعمار الخارجي والصهيوني، واتضحت اذن استراتيجيتها الثورية من خلال الممارسة والمعاناة والتجربة.

ثانياً:

النقد الذاتي للحزب الشيوعي اللبناني صيف 1968 ومثله أزمة الحزب الشيوعي السوري في ما بعد، فالحزب الشيوعي حتى صيف 1968 كما يقول في نقده الذاتي في كتاب "نضال الشيوعي من خلال وثائقه" كان يعتبر، الشأن القومي شأناً بورجوازياً. ولم يكن يربط بين إسرائيل والاستعمار، أي الإمبريالية، بل كان يعتبر أن هنالك فصلاً بينهما، وكما يقول كان ينظر إلى المسألة الفلسطينية، بالحرف، "من خلال وجوه فاروق ونوري السعيد وغيرهم من العملاء"، وكان يعتبرها مسألة رجعية. بعد النقد الذاتي في صيف 1968 أعاد

النظر في هذه المنطلقات وحدد الأعداء الأربعة كما تطرحه كل القوى الوطنية والتقدمية، وأصبح الاستعمار وإسرائيل متلازمين في استراتيجية.

ثالثاً:

حركة القوميين العرب، وهي التي ولدت في أعقاب هزيمة 1948 وشعارها الثأر من تلك الهزيمة. لقد كانت هزيمة 1967 بمثابة مخاض جديد لها، فقد أدّى توضيح استراتيجيتها الثورية إلى انشقاقها وإلى تبنّيها الماركسية اللينينية، لأنها قبل الهزيمة كانت توالي بعض الأنظمة وتعتبرها من ضمن الثورة وبعدها أصبحت تعتبر الأنظمة كلها خارج الثورة.

رابعاً:

المؤتمر القومي الاجتماعي العام في آخر 1969، مؤتمر ملكارت والذي أعلن فرز الأعداء والأصدقاء في مقرراته والتي نصّت على "التنديد بالولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وكل القوى الاستعمارية المساندة للصهيونية مالياً وعسكرياً وسياسياً، والدعوة إلى مجابهتها مجابهة منظمة هادفة". كما نصت على "التوجه بالشكر والتقدير إلى معسكر الدول الاشتراكية خاصة، وإلى كافة الدول الصديقة التي تؤيد قضيتنا". كما نصت توصياته على إدانة الرجعية الداخلية والتعاون معها.

إلا أنه في هذا المجال، لا بد لنا بصدد المؤتمر القومي الاجتماعي العام، وبصدد خطنا الثوري اليساري القومي الاجتماعي الواضح، من القول بأن هذه التوصيات وهذه الاستراتيجية لم تكن يتيمة في حركتنا أو من دون جذور، بل إن مواقفنا في اليسار القومي الاجتماعي، نابعة أصلاً وقبل كل شيء من فكر ثوري واضح لازم عقيدتنا منذ نشوئها.

إن سعاده قبل نكبة حزيران، بل وقبل نكبة أيار 1948، ومنذ العشرينيات، أكد على الترابط العضوي بين الأعداء الأربعة، وأعلن تحالف الاستعباد الخارجي ممثلاً بالصهيونية والاستعمار مع الاستعباد الداخلي الذي "يتخذ الإقطاعية والرأسمالية واسطة وشكلاً".

إن سعاده قد أكد هذا الترابط العضوي بين الأعداء الأربعة ووضع استراتيجيتنا الثورية انطلاقاً من عقيدتنا الثورية منذ البدء. يقول سعاده: "ان وعد بلفور لم يكن الطعنة الأولى ولا الطعنة الوحيدة التي نفذت في جسم الأمة السورية في هذا القرن، لقد سبقته طعنة ولحقتها طعنات. كانت الطعنة الأولى عندما اتفقت بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية قبل الحرب العالمية الأولى على اقتسام السيادة والنفوذ في سوريا بعد انتزاعها من تركيا، ثم أبدل هذا الاتفاق بمعاهدة سايكس – بيكو السرية العام 1916". فهو يربط هنا بين سايكس – بيكو

المعاهدة الاستعمارية، وبين بلفور وتصريحه القاضي بتهويد جزئنا الجنوبي. ولا يكتفي سعاده بهذا الربط بين الاستعمار القديم سايكس – بيكو وبلفور بل إنه في مقاله "البترول سلاح انترنسيوني لم يُستعمل بعد" يدعو إلى ضرب المصالح البترولية الأميركية إنقاذاً للمسألة الفلسطينية من براثن الاستعمار الجديد الذي هو استعمار الولايات المتحدة.

وهناك العديد من أقواله وقد استشهدنا ببعضها، وهناك غيرها، الذي يحدّد الترابط العضوي بين الاستعباد الداخلي والاستعباد الخارجي.

اذن استراتيجيتنا الثورية نابعة من عقيدتنا. إنها نابعة من فكر ثوري واضح. إننا ضد إسرائيل لأن مبادئنا الأساسية أعلنت سيادتنا القومية على كامل أرضنا القومية ولأنها حذرتنا من هجرة استيطانية خطيرة هي الهجرة اليهودية ودعتنا كسوريين قوميين اجتماعيين إلى دفعها بكل قوتنا. إننا ضد الصهيونية، لأنها تمثل تزاوج العنصرية اليهودية بالمصالح الرأسمالية العالمية في استهداف اقتلاعنا من أرضنا والسيطرة على مواردنا وتشريد شعبنا. اننا ضد الاستعمار لأن لا سيادة على أرضنا ومواردنا إلا لأمتنا وشعبنا. إننا ضد الرأسمالية والإقطاع لأنها أنظمة الحرمان المنافية للأخوة القومية وأنظمة السحق المادي والنفسي لمجموع منتجينا، ولأنها متحالفة مع الإقطاع والرأسمال العالميين. هذا فكر سعاده في ما استشهدنا به من نصوص. وانطلاقاً من هذا الفكر الثوري الواضح كانت استراتيجيتنا الثورية.

اذن نحن لسنا في مواقع اليسار بالصدفة أو بالمزاج بل نحن في مواقع اليسار انطلاقاً من فكر قومي اجتماعي ثوري هو فكر سعاده المؤسس الذي وعى ترابط الأعداء الأربعة، كما وعى القضية القومية الثورية النقيض لهؤلا الأعداء. وعندما يكون لنا هذا الإرث الفكري الضخم، هذه المنطلقات الواضحة، أيمكن أن ندّعي اليتم ونتنازل عن أبوة سعاده الثورية العظيمة لتكون مواقعنا في اليسار يتيمة، وليدة الصدفة، نراوح فيها كما تشاء الرياح؟ إن المواقع الثورية إذا لم ترتبط بنظرة ثورية كانت عشوائية، هي اليوم في اليسار وغداً في اليمين.

ان الذي حصل في الآونة الأخيرة، في السنوات الأخيرة عند طرح استراتيجيتنا الثورية هو إضافة الأصدقاء. فمن زاوية موضوعية لم يكن في الإمكان إطلاقاً أن يحدد سعاده المعسكر الاشتراكي في ذلك الوقت في جبهة الاصدقاء، لان الاتحاد السوفياتي في الأربعينيات، وحتى أواخرها كان يخضع للنظام الستاليني الذي أيّد قيام إسرائيل واعترف بها، ولم يكن له موقف واضح من صراعنا القومي في فلسطين بل كان له موقف معاكس.

كما أن الشيوعيين المحليين، كما استشهدنا بنصوص منهم، من نقدهم الذاتي 1968، كانوا يعتبرون المسألة الفلطسينية مسألة رجعية تخصّ فاروق ونوري السعيد. ولم تكن بعد الأحزاب الوطنية الأخرى قد قامت. فلم يكن هناك اذن، على الساح الوطني أو على الساح الدولي، من قوى متعاطفة مع حقنا القومي، ومع ذلك فقد دعا سعاده في رسالته إلى الأمة السورية إلى مؤتمر وطني ليحاور أبناء الأمة والقوى السياسية على الحد الأدنى الممكن من دعم الكفاح القومي في سبيل فلسطين. ففكرة الجبهة الوطنية التي يطرحها الحزب منذ مؤتمره في ملكارت وبيانات قياداته الرسمية منذ 1970، هي استمرار لفكرة جنينية طرحها سعاده يوم كانت القوى الوطنية على أقل ما تكون من ضآلة.

الأصدقاء والأعداء على الصعيد الدولي

وعلى الصعيد الدولي تطوّر موقف السوفيات وولد المعسكر الاشتراكي وقامت جمهورية الصين الشعبية، وهي أحداث جلّها حصل بعد استشهاد سعاده، ويمكن أن نقول إن موقف السوفيات بدأ بالتطور منذ 1956 على أثر الاعتداء على القناة، واستمر يتطور حتى أصبح في طليعة أصدقاء جبهتنا العربية وجبهتنا القومية. طبعا قد تكون هناك تناقضات في فهم حدود المسألة القومية ومداها، إذ إن كل أمة تعي قضيتها القومية ذاتها، واعتمادها الأساسي هو على نفسها. ولكن لا بد من التمييز الواضح الصريح بين العدو القومي كالولايات المتحدة والصديق لجبهتنا القومية والعربية كالاتحاد السوفياتي.

وإذا كان سعاده قد وعى منذ البدء الترابط العضوي بين الإمبريالية والصهيونية، فثمة ناحية اختلف وعيه لها عن كل من وعى هذا الترابط، فالإمبريالية لم تكن لديه فقط، بمفاعليها ونتائجها الأخيرة، احتلالاً عسكرياً هنا، وسيطرة رأسمالية على مرافقنا هناك، ونهباً لخيراتنا فحسب. بل كانت أكثر من ذلك بالمؤامرة الأم التي جزّأت بلادنا فمهّدت لتهويدها.

يقول السير هربرت صموئيل أول مندوب سامٍ بريطاني على فلسطين، وهو صهيوني عريق، في رسالة وجّهها في 2 نيسان 1920 إلى وزارة الخارجية البريطانية، وهي من الوثائق التي تنشر بعد خمسين سنة من مرور الزمن عليها حسب تقاليد وزارة الخارجية البريطانية، يقول هذا المتآمر الصهيوني على بلادنا في 1920 بالحرف: "إن سوريا المتحدة والمستقلة تُعتبر الوسيلة الوحيدة لمقاومة الصهيونية". (من كتاب "أوراق فلسطين" صدر مؤخراً عن دار "النهار").

هذا رأي العدو، الذي لم يطلع سعاده عليه لأنه بقي وثيقة سرية حتى هذا الصيف. ولكن فكر سعاده الثوري كان يواجه هذا الطرح التآمري بالدعوة لوحدة الأمة وتأسيس حركتها الثورية الواحدة.

إن سعاده، وعودة إلى ما طرحنا في البدء حتى تكون الخاتمة منبثقة من المقدّمة، إن سعاده في العشرينيات قد حيا مخاضه الثوري أكثر ما يكون في مواجهة الخطر الصهيوني الاستيطاني الطامع في أرضنا. كل هذا الحافز المفجّر لوجدانه المتألم فيستوعب ضرورة الثورة وضرورة إنشاء الحركة الثورية، في تلك المرحلة المبكرة واجه سعاده الخطر المصيري وهو بعد في حدود الإمكان والمشروع والمقاومة الفلسطينية قامت من مواجهة الخطر نفسه.

الحزب والمقاومة ينبعان من ردّ التحدي

الحزب السوري القومي الاجتماعي والمقاومة ينبعان من رد التحدي على خطر واحد: من الهاجس الفلسطيني نفسه. ولكن المقاومة بطبيعة الظروف والأحوال، كانت أسيرة الوضع الذي استتب في أمتنا. فكانت المقاومة فلسطينية، لأن حبوس التجزئة كانت قد ترسخت نصف قرن، أما سعاده فقد أنشأ الحركة السورية القومية الاجتماعية لينقض حبوس التجزئة بالوعي القومي الواحد وبالتنظيم الشعبي فتتحوّل طلائع حرب التحرير الفلسطينية بحدوث هذا التحول الشعبي الثوري إلى حرب تحرير قومية على مدى البيئة الطبيعية كلها. إنه النضال الثوري في المجتمع الذي لا غنى للكفاح المسلح في الميدان عنه. إن الكفاح المسلح في الميدان قد واجه، كما سبق القول، بالممارسة مؤامرات الأنظمة التي أراد أن يهادنها فاستلت خناجر الغدر تطعنه من الخلف. وإن الحزب السوري القومي الاجتماعي قد حدّد الأعداء الأربعة في الاستراتيجية الثورية التي أطلقها سعاده منذ البدء شاملاً أوضاع الرجعة العفنة في أمتنا والاستعباد الخارجي المهدّد مصيرنا بالويل والثبور. فقد وصف سعاده حرب 1948 "بمعارك العقلية السقيمة" و"الحكومات القزمية غير جديرة بالاضطلاع بمسؤولية تقرير المصير القومي" و"أن الصفوف الأمامية التي تسيرها تلك القيادات العاجزة والقضايا المائتة ستنهار لأنها صفوف غير مؤسسة على حقيقة قضية صحيحة". وأعلن "أننا سنستمر في مهمتنا الرئيسية تجاه هذا الخطر وهي: بناء الصفوف الخلفية التالية التي ستتقدم إلى مجابهة العدو كنظامها المتين وعقيدتها القومية الاجتماعية الصحيحة النظامية بعد أن تسقط الصفوف الأمامية"...

كان الفرز عند سعاده واضحاً بين صفوف الثورة وصفوف الرجعة في مواجهة العدو.

من هنا كان النضال الثوري في المجتمع ملازماً وضرورياً للكفاح المسلح في الميدان. وكانت المواجهة المصيرية متوقفة على مدى قدرة النضال الثوري في المجتمع أن يتصاعد، حتى يحول مجتمعنا كله إلى مجتمع كفاح مسلح. ومن هنا فإن فكرة مجتمع الحرب تبقى فكرة طوباوية هشّة إذا لم تقترن بالنضال الثوري لتبديل الأوضاع القائمة المعطلة لقدرة شعبنا عن خوض حرب التحرير، لأنه لا يمكن أن يقوم مجتمع الحرب على أكتاف الإقطاعيين والرأسماليين أو الطائفيين. ولا يمكن أن تقوم المستعمرات الزراعية الحربية في الجنوب لتواجه الكوبيتز الإسرائيلي، في ظل نظام إقطاعي رأسمالي متحكم. ان الذي يبني الفلاح والمزارع والثائر المسلح، ويجعل المحراث والبندقية توأمين في حرب التحرير الشعبية، هو نظام قومي اجتماعي ثوري.

إن الأنظمة العربية، والقوى التي واجهت إسرائيل حتى اليوم، رغم ضجيج طبول الحرب وفرقعتها، كانت تخوض الحرب بعقلية استمرار "الستاتيكو" الراهن، وكأنها تذهب إلى الحرب غير حازمة أمرها على خوض حرب مصيرية هي حرب وجود أو فناء. ان مناخ السلم بقي مسيطراً حتى على زمن الحرب. لماذا؟ لأن الشعب كان معزولاً عن المعركة في كل مكان. وبالأمس سمعتم بعد النكبة من هنا وهناك، أن دول المخابرات قد سقطت وأنها مسؤولة عن الهزيمة. ودول المخابرات تعني عزل الشعب عن معركة مصيره وحياته. وبالامس هنا في الجنوب واجه لاول مرة جنودنا العدو في قتال سقط منهم فيه شهداء، ولكنهم كانوا وحيدين، ولم يقاتل الشعب في سبيل الأرض لان علاقات الإقطاع والطائفية والرأسمال تعزل الشعب في ظل النظام عن أن يقوم هو بمواجهة العدو وعن ان يحارب معبّأ بالوعي الثوري القومي والنظام الثوري القومي(1).

(هامش - 1: منذ أواسط السبعينيات قاتل الشعب وانهزم نظام الإقطاع الذي كان يكبله.)

إننا دائماً في ندوات الفكر المترَف نستمع إلى أراخنة الفكر المترف يتحدثون عن التفوق التكنولوجي عند العدو، ولكنهم في فيتنام كانوا مختلفين عن أميركا في التكنولوجيا ومتقدمين عليها بالثورية، فأجبروها بالنتيجة على الجلوس إلى طاولة المفاوضات ثم إلى بيع عملائها في سايغون، وكانت ثورة منتصرة! وثورة فيتنام المنتصرة، قد اشترطت، كما جاء في نص مشروع الاتفاق الأخير، على قيام وحدة الجنوب والشمال، وهل من معنى لحرب التحرير القومية أكثر من الإصرار على وحدة التراب القومي. وسعاده قد أصرّ على وحدة أرضنا وتحريرها من كل اغتصاب وعدوان، ذلك أن الوحدة هي طريق تقويض المؤامرة الاستعمارية الأساسية، لأنه لا يمكن أن تربح معركة فلسطين إلا إذا ربحنا معركة محيط فلسطين.

الوحدة السورية الطبيعية والاتحادية العربية

إن الوحدة السورية الطبيعية هي محور تفكيرنا القومي ونضالنا، وهي في هذا الظرف المصيري أكثر ما تكون إلحاحاً، لان من دونها تبقى المقاومة الفلسطينية من دون منطلق في الأرض المحيطة بفلسطين مستفردة ككيانات التجزئة كما أنها من دونها تبقى مصر مستفردة على القناة وهذا من أسباب الهزيمة، كما أنها من دونها تبقى إسرائيل في نعمة تفككنا وتجزئنا على الجبهة التي وحدها تشكل منطلق التحرير اذا توحّدت.

وإذا كنا نعتبر وحدة سورية الطبيعية هي المنطلق القومي الأساسي للتحرير وهي محور تفكيرنا القومي والاستراتيجي، فإننا لا نغفل عن الاتحادية العربية التي هي الظاهرة التاريخية الأخرى التي نحن مدعوون إلى الاسهام فيها انطلاقا من وحدتنا القومية. نحن مع الجبهة العربية، منذ كنا، ولقد طرحها حزبنا منذ الأربعينيات في صيغة كونفدرالية اتحادية في مذكرة منه إلى مؤتمر الاسكندرية في 1944 نصت في ما نصت على "نظام من الضمانة المجموعية والدفاع المشترك عسكرياً، وتوحيد التمثيل الخارجي اذا أمكن، سياسياً، وعمل ترتيبات اقتصادية مشتركة تترسمها هيئة اقتصادية مركزية تضع الخطط الرئيسية للإنتاج والتوزيع في العالم العربي بأسره، تتقيّد في ذلك بإمكانات وحاجات كل قطر"، كما دعت إلى "برامج توجيهية ثقافية موحدة في خطوطها الأساسية".

وأكد بيان اللجنة التنفيذية العليا للحزب الصادر في 16 تشرين الثاني 1971 الالتزام بالاتحادية العربية باعتبارها "ضرورة تاريخية لا محيد عنها" في عصر "الاتحادات الإقليمية الكبرى" في أوروبا وآسيا وأفريقيا.

ولكن الاتحادية العربية الجبهوية لا تغني ولا تحلّ محل الوحدات الطبيعية التي لا تشكل نقيضاً لها بل على العكس مدعماً ومكملاً لها.

إن ربح معركة فلسطين هي ربح معركة محيط فلسطين الطبيعي القومي، كما هي ربح معركته الاجتماعية بإسقاط أنظمة الظلم الاجتماعي والطبقي وتعبئة الشعب وكسب معركة حرياته الديموقراطية.

الاستراتيجية الثورية والنضالات التكتيكية

وفي هذا المجال ونحن في صدد استراتيجية ثورية لحرب تحرير قومية اجتماعية. ما هو موقف هذه الاستراتيجية من النضالات الجزئية كالنضال المطلبي أو النضال الديموقراطي؟ أن يتلهّى شعبنا بالنضالات الجزئية عن الاستراتيجية الثورية الشاملة فطمس للثورة وإجهاض لها. وأن تعمى ثورتنا عن النضالات الجزئية التكتيكية وتطرح الاستراتيجية الثورية من دون ربط بالمرحلية التكتيكية، فذلك دوخان في سراب ووقوع في فخ الأنظمة ومهادنتها. فبحجة الاهتمام بالأهداف الثورية الأبعد تقع الاستراتيجية المتجاهلة للنضالات التكتيكية المرحلية في مواقع التفرج على النضالات العمالية والطالبية والشعبية والانعزال عنها، وتتيح للنظام هدنة متثائبة وتهادن سيطرة الرأسمال والإقطاع المسيطرة. إن مواقعنا في النضال المطلبي على رأس النضالات العمالية المنتفضة ضد النظام الرأسمالي بكل جزئياته وإن مواقعنا في النضال الطالبي على رأس الحركة الطالبية المطالبة بالثقافة الوطنية والتحرر من السيطرة الأجنبية والجامعة الوطنية والمشاركة الطالبية.

وإن الحركة الثورية هي التي تعرف كيف تشدّ النضال التكتيكي المرحلي إلى الأهداف الاستراتيجية البعيدة لا التي تنعزل عن النضال التكتيكي وتخسر أرض الشعب وفئاته المسحوقة.

إن مواقعنا في النضال الديموقراطي في رأس المطالبين بالحريات وقانون للأحزاب ينطلق من حرية الصراع العقائدي، لا نريد حرية الرفاه والمترفين، حرية تنابل المثقفين في شارع الحمراء، حرية الكاريكاتور الذي ينتقد حاكماً أو يضحك جمهرة في مسرح فني بل نريد الحرية التي تفتح أبواب التغيير الثوري أمام الشعب، الحرية التي تفسح في المجال لربط المواطنين بقضيتهم القومية ومصيرهم القومي. وأن الطغيان يُقاس في هذا المجال بمقياس الديموقراطية والحرية، ومقياس الضغط على الأفكار التي تربط لبنان ببيئته لا لعزل لبنان عن بيئته، أي مقياس المعركة القومية.

من هنا، فإن كل تغافل عن النضال المطلبي والديموقراطي بحجة الاهتمام بالقضية الأكبر هو نوع من الدوخان الذي يقودنا إلى الارتماء في أحضان النظام ومهادنته، والسكوت عن المظالم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الواسعة. النضال المطلبي ليس نقيقاً، إنه نضال تكتيكي مرحلي مرتبط بالنضال الثوري ضمن استراتيجيتنا الثورية الكاملة.

والنضال الديموقراطي لا يمكن أن يُفصل عن غايات توعية الشعب حتى يأخذ الشعب مصيره بيديه بقيادة الحركة الثورية، فلا تبقى الحرب حرباً فوقية مع العدو الذي ما انتصر إلا لأنه حارب البنية الفوقية المتداعية في مجتمعنا ولم يحارب مجتمعنا بشعبه العظيم الذي إذا عبّئ بحركة ثورية عقائدية لا يقل زخماً وبطولة وعظمة عن فيتنام والجزائر وهو الذي كانت له ميسلون وقفة عز، وعلى شاطئ الرمل من جناح بيروت وقفة

عز، وفي ثورته الانقلابية وقفة عز، وفي كل يوم يلتحم فيه كفاحه الثوري في المجتمع بكفاحه المسلح في الميدان، في تعاطف القوى الوطنية والتقدمية وطلائعها الحزب السوري القومي الاجتماعي مع المقاومة الفلسطينية أكثر من وقفة عز.

أيها الرفاق، أيها الاصدقاء

هذا باختصار وعلى قدر ما تمكّنت من إيجاز ملامح فكرنا الثوري واستراتيجيته الثورية، وشكراً لكم.

المفهوم القومي الاجتماعي لليسار

* ألقيت هذه المحاضرة في بلدة الفساقين – قضاء عاليه

وقد نشرتها "البناء" بتاريخ 11 أيلول 1971 عدد 1033/34

معنى اليسار

كلمة اليسار بدأ استعمالها في العصر الحديث، وعلى وجه التحديد في الثورة الفرنسية، وكلكم يعلم المناخ الذي ولدت فيه كلمتا اليسار واليمين من حيث إنهما مفردتان، اذ كان يجلس إلى يسار الجمعية الوطنية أولئك المطالبون بالتغيير وكان يجلس إلى اليمين أولئك الذين يدعون إلى المحافظة على الاوضاع الراهنة والمدافعة عنها.

ولكن لو أخذنا جوهر الموضوع وعرضنا اليسار بأنه دعوة إلى التغيير الجذري ودعوة إلى الثورية والى مواجهة الأوضاع القائمة بموقف الرفض والتحدي لاستطعنا أن نرى اليسار ينسحب على تاريخ البشرية منذ كانت البشرية. ولربما معترض يقول ولكنه غير اليسار الذي نعرفه اليوم، وأقول مسرعاً إن اليسار واليمين هما تعبيران نسبيان يختلفان باختلاف الزمان والمكان. **إذ إن يسار اليوم قد يصبح يمين الغد، كما أن يسار الأمس قد يصبح يمين اليوم لأن الحياة متطورة، لا تقف عند حد. والثورية الحقيقية هي التي تستطيع أن تستوعب ظاهرات التغيير برؤى جديدة، فتستشرف الغد، ولا تتوقف عند حد معين.**

يقول سعاده في ختام كتابه "الصراع الفكري في الأدب السوري" بأننا نطمح إلى إقامة العالم الجديد في امتنا وفي العالم، ولكن هذا العالم الجديد لن يكون هو العالم الأخير بل قد ينهض عليه عالم أجد. إلا أن هذا العالم الأجد، لا يمكن إلا أن ينهض انطلاقاً من عالمنا الجديد.

من هنا كان التجدد والتغيير، من هنا كان التطور والثورية هما اللذان يعطيان أبعاداً جديدة للكلمات والتعابير وللمواقف وللمواقع، بحيث لا نستطيع أن نقول بأن اليسار الذي يمر بمرحلة تاريخية معينة هو اليسار الدائم بمضامينه وأفكاره وما يطرح. إذ انه لا بد أن يواجه الحياة بتحدياتها، فإما يتطور مع رؤاه الجديدة، أو أنه

يصبح اليمين في المرحلة التالية.. اليسار ينسحب على تاريخ البشرية كلها ويستشرف مواقعه في أفراد وحركات في كل العصور. فسقراط مثلاً يوم رفض كل ما تمثله المدنية الاثينية وارتضى أن يشرب السمّ في رفضه لكل الأوضاع الاجتماعية والسياسية والفكرية في زمنه، كان يمثل يساراً في تلك المرحلة.

وزينون عندما رفض التقوقع ضمن شرنقة المدائن الاغريقية وطرح رؤى جديدة لعالم ينهض على ارتباط العقل والمناقب مقياساً للإنسانية رافضاً التمييز العنصري والتمييز المدني الذي كان أساس المدنية الاغريقية، كان زينون وهو ابن بلادنا، يسار ذلك العصر، لأنه على أساس ما طرح سقطت أسوار وسقطت تميّزات، وسقطت أرستوقراطية المدائن الاغريقية في سبيل المساواة الإنسانية، كما استشرفها العبقري السوري زينون.

ومحمد والمسيح كل في عصره ومجتمعه كان يساراً بالنسبة لمجتمعه وتقاليده، كان محمد يساراً بالنسبة لقريش والجاهلية عندما وضع فكر المساواة، ورفض أن يتميز إنسان على آخر إلا بالفضائل والقيم لا بالقبلية المشرنقة ولا بارستقراطية المال المسيطرة والمحتكرة. وكذلك المسيح عندما طرد الصيارفة من هيكل الربّ ورفض سيادة أصحاب المال والكهنوت على المجتمع داعياً إلى البساطة الكلية ومبشراً بالمساكين الذين يرثون ملكوت السماء كما يرثون الأرض.

كل في عصره كان يمثل الرفض للأوضاع الفاسدة القائمة في مجتمعه. وكان في هذا المعنى يساراً في عصره، ولكن الحياة كما قلت أشمل من أن تتحدد بمفاهيم يسار معين أو تنحصر بمفاهيم معينة في زمن ومجتمع معينين. لذلك كان كل يسار يترك مواقعه ليأتي بيسار جديد فيحل محله.

بهذه الرؤية التاريخية نتقدم إلى مفهوم اليسار السائد في عصرنا. وصحيح أن كل ثائر في زمنه مثل موقفاً يسارياً بالنسبة لأوضاع مجتمعه وزمنه، وصحيح بأن تعبير اليسار واليمين كان وليد الترمونولجية السائدة في عصر الثورة الفرنسية، **ولكن اليسار الذي أصبح مطروحاً منذ القرن التاسع عشر هو في الحقيقة وعلى وجه التحديد يسار الاقتصاد.** فمنذ القرن التاسع عشر ومنذ أن انبثقت الثورة الصناعية بكل منجزاتها العلمية والاقتصادية الضخمة فقلبت مقاييس الاجتماع البشري ووضعت الاجتماع البشري على قواعد جديدة، كما يقول سعاده في "نشوء الأمم". منذ هذا الحدث الكبير في حياة الإنسانية المعاصرة وقيام الثورة الصناعية بكل منجزاتها الاقتصادية والعلمية الضخمة من جهة وبكل نتائجها الاجتماعية البائسة من جهة ثانية في ظل النظام الرأسمالي الفردي الاستغلالي. في ضوء هذا الحدث الاقتصادي الاجتماعي الكبير أصبح اليسار انطلاقاً من هذا الحدث هو الذي يعالج المشكلة الاقتصادية بكل أوضاعها، وبهذا الموضوع نستطيع أن نفهم كيف أن الماركسية استقطبت إلى حد كبير موضوع اليسار طرحاً فكرياً وتنظيرياً وتطبيقياً ثورياً وممارسة نضالية، ذلك لانه اذا كان الاقتصاد قد أصبح هو القضية المحورية نتيجة الثورة الصناعية ونتائجها الضخمة، واذا كان الاقتصاد قد عكس نتائجه على الاجتماع وعلاقات الإنتاج وعلاقات الاجتماع فإن المدرسة الفكرية النضالية التي طرحت أجوبة عن هذه المسألة استطاعت أن تستقطب إلى حد كبير اهتمام الناس وأن تصبح هي محور هذا اليسار بمفهومه المعاصر. لذلك قلّما طرحت تعابير اليسار واليسارية إلا وتبادر للناس الماركسية والماركسيون. ولذلك يحصل هذا الالتباس فلا يتصور الناس يساراً إلا وهو يسار ماركسي بالضرورة، ولا بد هنا من التوقف أمام ما طرحت الماركسية وما واجهته، لأننا اذ نحدد اليسار المعاصر، لا بد لنا من أن نتوقف أمام أبرز مدارسه الفكرية.

الماركسية والمشكلة القومية

فالمدرسة الماركسية واجهت نتائج الثورة الصناعية في أوروبا في ظل نظام رأسمالي استغلالي نقيض قبض على إنجازات العلم في الثورة الصناعية وسخّرها لربح الأفراد واستغلال الأفراد. وواجهت الماركسية النتيجة الاولى لهذه الحالة، نتيجة الاستغلال الطبقي في أوروبا المصنعة حديثاً نتيجة ظهور البروليتاريا أي العمال المغبوني الحقوق ضد الطبقة الاحتكارية الاستغلالية الرأسمالية، وعندما وضع ماركس نظريته وهو ابن المجتمعات الأوروبية الصناعية لم يطرح المشكلة الصناعية على أساس خلفياتها القومية، لأن الأمم التي كانت تعاني من المشكلة الاقتصادية في العصر الصناعي لم تكن أمماً تناضل في سبيل استقلالها القومي وفي سبيل سيادتها الوطنية وفي سبيل وحدتها، كانت أمماً قد أنجزت ذلك كله قبل زمان.

والمانيا التي كان ماركس منها أو بريطانية التي انتقل إليها أو فرنسا التي ظهرت فيها الأفكار الاشتراكية الماركسية وشبه الماركسية كانت كلها أمماً حققت وحدتها القومية وانتصرت فيها مبادئ السيادة القومية على أرضها، وكانت تدخل مرحلة التوسع الامبراطوري وقيام مظاهر الإمبريالية المتوسعة على العالم، لذلك لم تكن المسألة القومية في أساس المسألة الاقتصادية بل كانتا مسألتين مختلفتين كلياً لأن المشكلة الاقتصادية كانت مجرورة إلى ذيل التوسع الامبراطوري في العالم، **ولم تكن المشكلة الاقتصادية في تلك المجتمعات جزءاً من ثورتها في سبيل التحرر والسيادة والاستقلال. على هذا الأساس لم تطرح في الماركسية المسألة القومية كمسألة أساسية، بل طرحت المسألة الاقتصادية الاجتماعية من ضمن أمم سيدة قومياً على مرافق أرضها ومتوسعة خارجياً في سبيل بلوغ إمبراطوريات في العالم. عندما ندرك موضوعية الظرف الذي طرحت فيه المسألة الاقتصادية الماركسية، نستطيع أن نفهم هذا الغياب الكلي في الماركسية عن المسألة القومية ومشكلاتها وقضاياها.** هذا الغياب الذي بطبيعة الحال ونتيجة وجود الماركسيين الاوائل في مجتمعات حُلّت فيها المشكلة القومية، ولكن وبكل أسف اعتبر غياب الماركسية عن المشكلة القومية، وكأنه شأن طبيعي عند الماركسيين في كل الأزمنة التي تلت ماركس.

ولقد تنبّه إلى هذا الغياب بعض الماركسيين العباقرة مثل لينين وماوتسي تونغ فيما بعد، الذين واجهوا حالة مختلفة كلياً عن حالة المجتمعات الأوروبية الغربية المصنعة المتقدمة، فتنبّه لينين العام 1915 عندما وضع كتابه "الإمبريالية أعلى مراتب الرأسمالية" إلى أن النضال ليس ضد الرأسمالية المحلية وهو ليس نضالاً بين طبقتين بورجوازية وبروليتارية، فحسب بل إنه أوسع من ذلك وأبعد، إنه نضال ضد أخطبوط الرأسمالية العالمية التي ستصبح استعماراً اقتصادياً جديداً ينهب موارد الأمم ويسيطر على أسواقها، **وتنبّه لينين إلى أن الماركسية كلها بحاجة إلى اعادة نظر أساسية وجذرية، لأن النضال على أساس أوروبا الصناعية بين الطبقتين لم يحدث الثورة العالمية، وأن الثورة العالمية لا بد أن تستعين بثورات الشرق وأن ترتكز في رؤاها إلى ما يتفجّر في الشرق من قوى ثورية أهملتها الماركسية الأولى وفي طليعتها قوى الفلاحين وقوى المستعمرات وقوى الشعوب الثائرة في سبيل سيادتها القومية وفي سبيل استقلالها الوطني، فكُتب الكثير في هذا المجال.**

ولكن لم يستطع لينين وهو يصوّر الإمبريالية والصراع ضدها في العالم أن يرى النقيض الأساسي للإمبريالية في العالم، النقيض المقوّض للإمبريالية وبالتالي للرأسمالية، ذلك لأنه هو أيضاً لم يكن ابن مجتمع يثور في

سبيل سيادته القومية ووحدة بلاده القومية، فروسيا القيصرية التي ثار عليها الشيوعيون العام 1917 هي أيضاً أمبراطورية متوسّعة مكتفية محققة لسيادتها القومية وغير مسحوقة تحت استعمار خارجي، من هنا كان إسهام ماوتسي تونغ والمدرسة الصينية في ما بعد في إعطاء الشأن القومي قيمته. كان هذا الإسهام نتيجة أن الأمة الصينية كانت تثور في سبيل سيادتها القومية واستقلالها الوطني كما تثور في سبيل نظامها الاجتماعي الجديد(1).

(هامش 1 – مع تقدير ما أعطى ماوتسي تونغ لكن خلفاءه تخلوا عن نهجه.)

تبدّل مفهوم اليسار

طرحت باختصار كل هذه المراحل في الماركسية لأظهر أن من ضمن الماركسية نفسها حصل تبدّل لمفهوم اليسار. وهذا التبدّل كان حسب ظروف المجتمعات ومراحل التطور. فعندما كان ماركس يندد في أوروبا بالاشتراكيين الخياليين الطوباويين الذين لا يريدون الثورة الجذرية، كان هو إلى يسار هؤلاء الاشتراكيين. وعندما جاء لينين ليعلن بأن الثورة ليست ثورة محلية في أوروبا بين الطبقة البروليتارية والطبقة البورجوازية، بل هي ثورة ضد الإمبريالية في العالم، ولأن هناك قوى أهملها ماركس كالفلاحين والمستعمرات هي التي ستصبح وقيد الثورة، كان لينين إلى يسار ماركس. وعندما جاء ماوتسي تونغ يعلن بصراحة وقوة أن المعركة في الصين ليست بين طبقة وطبقة بقدر ما هي معركة الأمة "الصينية العظيمة"، كما يسمّيها، وأن الأمة الصينية كلها هي أمة بروليتارية بمعنى أنها أمة مسحوقة من قبل الأمم المستعمِرة المسيطرة على مدارسها ورؤياها، لم يعد بالإمكان طرحها على أساس محلّي معين. هكذا تجد اليسار المعاصر هو الذي شغلته المدرسة الماركسية بمفاهيمها، لأنها تصدّت لحل المشكلة الاقتصادية بكل أوضاعها ونتائجها الاجتماعية.

ولكن هذا الطرح بحد ذاته تطوّر وتبدّل بمضامينه تطوراً وتبدلاً يكاد يطرح النقائض. ولا أقول بأنه تطوّر بقي محافظاً في مناحٍ كثيرة على القواعد التي انطلق منها، لأنه عندما نرى المسيرة من ماركس إلى لينين وماوتسي تونغ نرى بأن هذه المسيرة في ملامح كثيرة طلّقت القواعد الأساسية وطرحت بدائل جديدة. **فهذا التغيير إذن يدلّنا على أن اليسار ليس موقعاً جامداً بل هو موقع متطوّر حسب حاجات المجتمعات وظروفها والقضايا المطروحة أمامها.**

من ضمن هذه المقدّمة أستطيع أن أبدأ بطرح مفاهيم اليسار القومي الاجتماعي وملامحه البارزة. وكيف يتميّز عن المفاهيم التقليدية لليسار وكيف يلتقي مع أفكار يسارية أخرى. **كيف نلتقي مع هذه الأفكار وأين نفترق عنها بملامح المدرسة السورية القومية الاجتماعية المميّزة بطرحها لليسار من ضمن منظورها المحدد.**

المشكلة الاقتصادية هي جوهر المشكلة القومية، وهي التي على أساسها تحدّد اليسار وتحدّد اليمين في العصر الحديث، ولكن المشكلة الاقتصادية كما قالت الماركسية اللينينية ذاتها، في تطوّر مداركها ورؤياها، لم يعد بالإمكان طرحها على أساس محلي معين وحصرها به. **إن الاقتصادية أصبحت مشكلة مطروحة على العالم.**

وإن العالم ليس مجتمعاً واحداً. العالم لا تقوم فيه مصالح موحّدة بل تقوم فيه مصالح متناقضة على أساس تعدّد مجتمعاته وعلى أساس قيام وحدات حياة وعمران متعددة فيه، لها مصالحها المتميّزة في كل منها في كل دورة حياتية واجتماعية.

ثورة الشرق

من هذا المنطلق يبدأ أنطون سعاده. فسعاده في العشرينيات يلاحظ ما لاحظه لينين في المرحلة نفسها بأن هناك ثورة في الشرق. فما هي ثورة الشرق هذه؟ لينين اعتبر ثورة الشرق هي ثورة ضد الإمبريالية. ولكن لينين درس هذه الثورة من زاوية نقيضها الإمبريالية، فحلل الإمبريالية الأخطبوط الاستعماري الاقتصادي على أسواق الأمم المتخلّفة. أما سعاده فقد نظر إلى الحالة نفسها لا من زاوية الإمبريالية بل من زاوية نقيضها، ونقيض الإمبريالية يواجهنا بهذا التحديد:

إذا كانت الإمبريالية هي أعلى مراتب الرأسمالية وإذا كانت الإمبريالية هي أعدى أعداء الشعوب، فإن نقيض الإمبريالية لا بدّ أن يكون أعلى مراتب الثورية، وبالتالي يمثّل هو الحركة اليسارية الأصلية الرافضة لأعدى أعداء الشعوب ولأعلى مراتب الرأسمالية. **على هذا الأساس لم تعد الثورة الطبقية مجردة عن المنطلق القومي هي التي تمثل اليسار، بل أصبحت الثورة القومية ضد النظام الطبقي الانترنسيوني كما سمّاه سعاده، أي ضد الإمبريالية العالمية، هي منطلق اليسار الحديث.**

من ضمن هذا المنطلق نستطيع أن ننتقل إلى موقع جديد في اليسار، فاليسار لم يعُد محصوراً في النضال الطبقي ضمن المجتمع الواحد، وطالما أن الماركسية نفسها قد رأت بأن النضال قد أصبح له أبعاده العالمية، وطالما أن العالم ليس مجتمعاً واحداً بل هو مجموعة مجتمعات، وطالما أن هذه المجتمعات ليست في سوية واحدة بالنسبة لموارد الأرض والسيطرة عليها، وطالما أن الاستغلال لم يعد استغلالاً داخلياً فحسب، بل هو استغلال عالمي بحيث تقف بعض الأمم من موارد الأرض وسيطرتها عليها موقف الرأسمال المحلي من العمال الكادحين أستغلالاً ونهباً، فإذاً هنالك أمم تسيطر على أمم أخرى، واذاً كما حدد سعاده في مقاله "النظام الجديد" هنالك أمم لها إمبراطوريات ساحقة وهنالك أمم متوسطة وهناك أمم فقيرة مغلوبة على أمرها مضغوطة ومقهورة. في ضوء هذه المعطيات كلها يصبح اليسار هو نضال ضد هذه الحالة السيئة الزرية في العالم، أي ضد الاستعمار العالمي او ضد الإمبريالية بصورة محددة باعتبار الجانب الاقتصادي في السيطرة الاستعمارية العالمية. وتصبح الثورة القومية في منطلق اليسار الجديد وتصبح هي مقياس كل يسار ومقياس كل يسارية.

اليسار القومي الاجتماعي

هذا هو الملمح الأول لمفهوم اليسار القومي الاجتماعي: إنه يسار قومي. فلنحاول أن نراجع معاً التمايز بين هذا الطرح وبين ما وقعت فيه بعض المدارس الفكرية والأحزاب اليسارية التقليدية. بينما يعتبر الحزب السوري القومي الاجتماعي المنطلق القومي، في ضوء هذه الصورة لتبدل الأوضاع في العالم، هو منطلق الثورة واليسار والتغيير والرفض. استمرّت بعض الأحزاب اليسارية التقليدية تعتبر الشأن القومي شأناً برجوازياً بالضرورة وتعتبر الولاء القومي ولاء برجوازياً بالضرورة وتعتبر النضال ضد الشأن القومي

نضالاً أممياً يسارياً ثورياً. وإني أحيلكم بهذه المناسبة إلى وثيقة أساسية هي تلك التي صدرت في صيف سنة 1968 عن الحزب الشيوعي اللبناني وعن الأحزاب الشيوعية العربية وذكرت بالحرف الواحد نقداً ذاتياً، له كل تقديرنا، من حيث جرأته في إعلان الحقيقة، في أن هذه الأحزاب استمرت حتى ذلك التاريخ أي حتى بعد نكبة حزيران سنة 1967 تعتبر الشأن القومي شأناً برجوازياً وتعتبر المشاعر والولاء القوميين مشاعر برجوازية. ولكن تأكد لها بأن الفلاحين والعمال لهم أيضاً مشاعرهم القومية، وبالتالي هم يجب أن يكونوا حراس القضية القومية. إن هذا الذي توصلت إليه الأحزاب الشيوعية في بلادنا والعالم العربي في صيف سنة 1968 وهو ما أعلنه الحزب السوري القومي الاجتماعي منذ نشأته معتبراً الشأن القومي هو منطلق الثورية في مواجهة الاستعمار ورفض الاستغلال العالمي والاستغلال الداخلي معاً. هنا اذن اختلاف في المنظور والطرح. وهذا الاختلاف في المنظور والطرح ليس من قبيل الصدفة بل إن هذا الافتراق يعود كما قلت إلى افتراق في أوضاع المجتمعات والبيئات. **فالماركسية عندما انطلقت، انطلقت من مجتمعات حققت وحداتها القومية بينما القومية الاجتماعية انطلقت من مجتمع يعاني مخاض الثورة في سبيل الوحدة والسيادة والتحرر. ولكن مصيبة بعض الأحزاب الشيوعية، لا سيما العربية منها، أنها لم تعِ هذا التمايز فأخضعت الشعوب للمبادئ بدلاً من أن تحكّ المبادئ على محك الشعوب. الملمح الثاني من مفهوم اليسار القومي الاجتماعي أن الثورة القومية فيه هي ثورة اجتماعية في الوقت نفسه، أي ثورة قومية اجتماعية.** وحتى لا نضيع في المفردات والتعابير أحاول أن أوضح ماذا نعني بذلك. حدّد سعاده الأمة بأنّها مجتمع واحد وحدّد سعاده الأمة بأنها وحدة مادية نفسية. من ضمن هذا المنطلق أصبحت الأمة هي المجتمع والثورة القومية هي بالضرورة ثورة اجتماعية. ماذا نعني بهذا؟ نعني **بأن الثورة القومية تدرك الصلة العضوية بين الاستعمار والاستغلال الخارجي وبين الأوضاع الفاسدة في الداخل المتحالفة مع هذا الاستعمار الخارجي.** وقد أعطى سعاده أكثر من بيان وتصريح وقول يحدّد فيه هذه الصلة العضوية بين الرأسمال والإقطاع المحليين وبين الرأسمال والإقطاع الدوليين، ويعلن أن الحزب السوري القومي الاجتماعي يحارب هذين الخصمين المتحالفين في وحدة عضوية. الحزب السوري القومي الاجتماعي يربط إذن بين النظام الفاسد في الداخل وبين الاستعمار والعدوان في الخارج، لأنه يرى بأن النظام الاجتماعي الفاسد في الداخل هو خير حليف ومعوان للاستعمار الخارجي سلباً وايجاباً. سلباً من حيث إنه لا يهيئ الأمة لمواجهة هذا الاستعمار وايجاباً من حيث سقوطه تحت قبضة هذا الاستعمار بضعفه وهشاشته. فالثورة القومية إذن بالضرورة ثورة اجتماعية **ومفهوم سعاده الأمة مجتمع واحد، ليس مفهوم سكونياً مستنقعياً يرضى عن الحالة الراهنة ويدعو الظالم والمظلوم أن يتآخيا في حلف عشائري أو في ميثاق وطني أو في وحدة وطنية مزيفة أو في مصالحات لها طابع التسوية. إن مفهوم سعاده الأمة مجتمع واحد يعني أمرين نقيضين لهذا كله.**

ظاهرة النزاع الطبقي

1- إن وحدة الحياة القومية المستمرّة على أرضنا هي أبقى من كل النزاعات الاجتماعية العارضة، وإنها وحدة الولاء على الأرض المستمرة عبر الأجيال هي التي تمثل المجتمع وديمومته واستمراره. ويعني شيئاً آخر بأن وحدة المجتمع لا يمكن إلا أن تتحقق على أساس العدل الاجتماعي والعدل الاقتصادي معاً. يقول سعاده في "المحاضرات العشر" "إننا نريد وحدة قومية متينة"، ولكن لن تتحقق مثل هذه الوحدة القومية المتينة إلا بنظام

اجتماعي ونظام اقتصادي جديد. **معنى هذا أن القول بوحدة المجتمع لا يعني وحدة تقوم على مستنقع الأوضاع الراهنة بل يعني وحدة تقوم على العدل الاجتماعي الاقتصادي، تقوم على إسقاط النظام الإقطاعي الرأسمالي، تقوم على نظام المنتجين المتساوين، تقوم على أساس سيادة الشعب والمنتجين على مرافق أرضهم لا على بقاء واستمرار الاحتكار والاستغلال في أي وجه من الوجوه، هذا التحديد ضروري، وإلا إذا لم نفهم هذا التحديد، وقعنا في ضخّم التعميمات، وصنفنا حزبنا الذي هو في أقصى اليسار بمواقع اليمين الجامدة لأن اليمين أيضاً يطرح شعار الوحدة الوطنية ويطرح شعار وحدة المجتمع، لكن على حساب بقاء الأوضاع الفاسدة كما هي، أي أن اليمين يطرح في بلادنا وفي العالم العربي وفي العالم شعار وحدة المجتمع على أساس المستنقع الآسن الفاسد. أما الحزب السوري القومي الاجتماعي فيطرح شعار وحدة المجتمع على أساس ما يحققه البركان الثوري من هدّ الظلم الاجتماعي ودكّ معالمه وإقامة العدل الاقتصادي الاجتماعي.** هذا الفارق أساسي بين شعار وحدة المجتمع الذي يطرحه المستفيدون من الأوضاع الفاسدة القائمة وبين شعار وحدة المجتمع الذي يطرحه الحزب السوري القومي الاجتماعي لإسقاط الظلم الاجتماعي الاقتصادي وإقامة وحدة المجتمع على العدل الحقوقي الاجتماعي. **وكما أن موقع حزبنا في يساريته وثوريته يختلف ويصادم هذا الموقع اليميني الرجعي، فإنه يتميّز في الوقت نفسه عن الموقع اليساري الكلاسيكي التقليدي الذي يعتبر أن بالإمكان حلّ المشكلات على أساس ظاهرة النزاع الطبقي.** إن ظاهرة النزاع الطبقي ظاهرة موضوعية. وسعاده لم يتنكر لها، عندما أعلن في مقالة "النظام الجديد": "ولم يكن من نتيجة اجتماعية لنظام الطبقات الرأسمالي سوى الحفز على قيام نظام حرب الطبقات" **فوجود حرب الطبقات والنزاع الطبقي ظاهرة اجتماعية عند سعاده لا مجال لإنكارها موضوعياً وعلمياً وهي حصيلة النظام الرأسمالي.** لقد قارن سعاده بين المسبّب والنتيجة. فظاهرة النزاع الطبقي هي حصيلة الاستغلال، هي حصيلة السيطرة الطبقية الرأسمالية التي تستغلّ المنتجين فتدعوهم إلى التكتل طبقيا لمواجهة التكتل الطبقي الرأسمالي.

سعاده والثورة الاجتماعية

ولكن لا يمكن حصر الصراع الاجتماعي في ظاهرة الصراع الطبقي. إن الثورة الاجتماعية عند سعاده، وهي في الوقت نفسه ثورة قومية، هي أشمل من الثورة الاقتصادية الطبقية كما طرحتها الماركسية. إنها أشمل لأسباب عدة:

اولا أنها لا تقوم على مجرد الشأن المادي الاقتصادي، لأنه في الأمم المجزأة نفسياً والمجزأة اجتماعياً، المشكلة ليست مجرد مشكلة إنسان وطبقات. في أمتنا جيوب طائفية عنصرية. في أمتنا مشكلة كردية في العراق، في أمتنا يطرح مشروع الوطن القومي المسيحي في لبنان. في أمتنا عصبية آشورية، في أمتنا مفهوم للأكثرية الطائفية على مدى اتساع المشكلة واتساع الكيانات، فهي مشكلة المسيحيين في سورية الطبيعية كأقلية وهي مشكلة المحمديين في الكيان اللبناني كأقلية، وقس على ذلك العديد من المشكلات العنصرية الطائفية. **هذه**

المشكلة لا يمكن أن تحل بتبدل علاقات الإنسان بوسائل الإنتاج، حيث يقوم نظام اشتراكي وتبقى مفاهيم المجتمع كما هي. دليلنا على ذلك ما حدث مثل ذلك في أمتنا وفي العالم العربي، **وما نكبة حزيران سنة 1967 إلا لأن وسائل الإنتاج تبدلت والأنظمة تسلحت بأحدث منجزات التكنولوجيا، ولكن الإنسان لم يصبح إنساناً جديداً، بل بقي المجتمع التقليدي بكل إرثه الفكري والذهني وبمؤسساته التقليدية مسيطراً على مجتمعاتنا. كانت النكبة لأن التبدل اقتصر على الناحية المادية في مجتمعاتنا** ولم يقترن بتبدل العقل والمفهوم، لم يكن تبدلاً بولادة الإنسان الجديد. إذن الثورة في مجتمعاتنا لا يمكن أن تكون مجرد ثورة في علاقات الإنتاج، **لأن ثورة علاقات الإنتاج في المجتمعات الأخرى نمت بعد أن حققت تلك المجتمعات ثوراتها الاجتماعية والفكرية والنفسية قبلها بزمان.** إن المجتمعات الأوروبية التي عايشت الماركسية كانت مجتمعات قد فجّرت الثورة الفرنسية ومن قبلها عصر الإصلاح، ومن قبلها الاكتشافات الكبرى. **فلم تكن الثورة الاشتراكية هي كل الثورة، بل كانت خاتمة ثوراتها ومسيراتها الثورية على قرون عدّة.** وفي الصين بعد أن فجرت ثورتها الاشتراكية الماركسية على نحو عشرين سنة اضطرت إلى تفجير ثورتها الثقافية لأنها وجدت أن تغيير علاقات الإنتاج لم يغير الإنسان بمفاهيمه ومؤسساته وتقاليده فاضطرت إلى تفجير ثورة ثقافية تعالج مفاهيم الإنسان وعقله وتقاليده لتكمل ثورتها الاقتصادية بالثورة الثقافية. عند سعاده، الثورة الثقافية والثورة الاقتصادية منطلقان من أساس واحد منذ البدء بنظرته المدرحية إلى الحياة، وبقوله إن الأمة وحدة عوامل مادية نفسية. **وبالتالي بأن الثورة ثورة مادية نفسية تستهدف إسقاط الظلم الاجتماعي والاقتصادي، كما تستهدف بناء الإنسان الجديد على أسس نفسية عقلية مناقبية.**

الثورة الاجتماعية هي
بالضرورة ثورة قومية

من هنا، فإن الحزب السوري القومي الاجتماعي إذ يعالج مشكلة الظلم الطبقي، وإذ يرفض النظام الرأسمالي المستغلّ والنظام القطاعي المستعبِد، ويطرح اشتراكية اجتماعية بديلا عنهما، إلا أنه لا يقصر ثورته الاجتماعية على الشأن الاقتصادي بل يعتبر أن الشأن النفسي أيضاً له مجاله الكبير في ثورته الاجتماعية ويعتبر بالضرورة أن ثمة مشكلات لا تحلّ على أساس اقتصادي مجرد، كالمشكلة الطائفية والمشكلة العنصرية. **وأن حلّ هذه المشكلات يكون بالوعي القومي،** وما هو الوعي القومي في هذه الحال؟ وكيف أن الوعي القومي في اليسار القومي الاجتماعي له مدلول ومضامين ثورية، فهو ليس وعياً موضوعياً يقتصر على معرفة الأشياء، بقصد معرفتها، بل هو وعي أبعد من ذلك بكثير. إذا حدّدنا عصر الانحطاط نستطيع أن نقول بأنه العصر التي غابت فيه معالم شخصيتنا الاجتماعية الواحدة، معالم روابطنا الطبيعية الأصلية. عصر الانحطاط هو العصر الذي أصبح فيه إنساننا، إما مخلوقاً طائفياً، أو ضمن عشيرة فولاؤه للعشيرة، أو ابن عائلة تستقطب العائلة ولاءه ووجوده، عصر طغت فيه الروابط الاجتماعية المشوهة، الجزئية في ولائها محل أيه رابطة اجتماعية أصلية. فعندها يصبح الإنسان ابن عشيرة، أو ابن عائلة انسلخ عن مجتمعه وأضاع هويته الأساسية. أما عصر النهضة، وهنا نعود إلى مقولة الوعي القومي الثوري، **أما عصر النهضة، فهو عصر استجلاء الإنسان لهويته الاجتماعية الأصيلة.** عندما يعي الإنسان بأنه ليس ابن عشيرة، ولا هو ابن طائفة،

ولا هو ابن عائلة بل هو قبل ذلك كله ابن وطن وهو ابن هذا الشعب الموحّد في حياته ومصيره، على وحدة أرضه، وليس على أساس وحدة عشيرته أو وحدة طبقته، أو عنصره عندما يعي الإنسان هويته القومية على أساس هذه الأبعاد الاجتماعية الكبرى، عندما يعي الإنسان هويته الاجتماعية على أساس أنه ليس ابن عشيرة أو طائفة أو عنصر، بل هو مرتبط بوحدة حياته على وحدة أرضه، وعلى أنه ليس محمدياً أو مسيحياً أو عشائرياً، **بل إنه مرتبط بكل إنسان في أرضه، حتى بالذين لم يرَ لهم وجهاً، حتى بالذين ليسوا أحياء من جيله، حتى بالذين لم يولدوا بعد،** عندما يعي وحدة مجتمعه بكل هذا الاتساع الجغرافي، بكل هذا الاتساع التاريخي المتعاقب جيلاً بعد جيل، عندما **يعي الإنسان هويته القومية بهذا المنظور يكون قد حقق، عبر وعيه القومي وعيه الثوري. وعلى أساس هذا الوعي، يرفض الطائفية والعائلية والعنصرية ويعتبرها أمراضاً مشوهة لوحدة حياته. ومن هذا المنطلق القومي تتحقق الثورة الاجتماعية بأبعادها النفسية، كما تحققت بأبعادها المادية وبتحقيق هذه الثورة الاجتماعية أشمل من أن تحدّ بالشأن المادي وحده، أو بالشأن النفسي وحده. وتكون هذه الثورة القومية الاجتماعية هي اليسار الكلي الشامل لأنها ترفض الحالة النفسية المادية السيئة القائمة في أمتنا وتقيم حالة نفسية مادية جذرياً مختلفة عنها تحقق قيام النظام الجديد الذي ينهض بقيام الإنسان الجديد.**

من ضمن هذا المنظور نستطيع أن نرى بأن مفهوم اليسار القومي الاجتماعي هو يسار مميز عن الطرح الكلاسيكي لليسار، مع أنه ملتقٍ مع هذا اليسار على مطلب العدالة الاجتماعية، وعلى دكّ النظام الإقطاعي الرأسمالي القائم، وعلى إقامة نظام اجتماعي جديد، ولكنه يختلف عن اليسار الكلاسيكي التقليدي بأنه إذ ينطلق من الشأن القومي ويعتبره مفجر الثورة الاجتماعية، يصل إلى نتائج مختلفة لجهة أن الثورة الاجتماعية لا يمكن حصرها بالشأن المادي وحده وثانياً بأن الثورة الاجتماعية بالضرورة ثورة قومية.

إن اليمين القومي يعتبر الثورة القومية خالية من المضامين الاجتماعية، وهو بذلك يقع في الخطأ والزلل. لان الثورة القومية اذا حدثت ضد الاستعمار الخارجي ولم تحقق تغييراً في النظم الاقتصادية الاجتماعية في البلاد، تكون ثورة ذات مضامين رجعية محافظة. كما أن اليسار التقليدي اذ يطرح الثورة الاجتماعية مسلوخة عن جذورها ومنطلقاتها القومية يجهض هذه الثورة الاجتماعية. وعندما أقول يجهض هذه الثورة الاجتماعية، لا أطرح الكلام على عواهنه، بل أقدم لكم بالدليل الحسي ماذا نعني بإجهاض الثورة الاجتماعية إذا تمت تعريتها من منطلقاتها وقواعدها القومية. **نحن أمام مقياسين لتقييم اليسار في أمتنا، المقياس الاول حرب التحرير القومية ضد إسرائيل، والمقياس الثاني تحقيق وحدتنا القومية الطبيعية.**

كل نظام مهما بالغ في تحديد العدل الاجتماعي الاقتصادي، ولو حقق الاشتراكية المثلى التي نطمح إليها جميعاً، **ولكنه تعايش مع الاغتصاب الصهيوني يكون قد فقد قاعدته الثورية الأساسية، فقدها من حيث إنه تنازل عن موارد في أرضنا لعدونا، فقدها من حيث الصراع ضد الإمبريالية والاستعمار وهو أعلى مراتب الكفاح الثوري وكل مهادنة للاستعمار والرجعية يكون تخلياً عن اليسارية والثورية. وكذلك تحقيق الاشتراكية ضمن أوضاع التجزئة الكيانية لا يمكن أن يحقق الخير الذي نطمح إليه من وراء قيام نظام جديد بديل عن النظام الرأسمالي الإقطاعي.** تصوّروا لو أن لبنان تغيّر فيه نظام وقام فيه نظام آخر، ولكن النظام الجديد لم يرتبط بالقاعدة القومية الطبيعية التي تشدّ لبنان إلى بيئته الطبيعية، ماذا تكون النتيجة؟ هل يستطيع لبنان أن يقيم اقتصاداً متكاملاً بذاته؟ إن مشكلة لبنان الاقتصادية الكبرى أنه يعتمد اقتصاد الخدمات ويجهض

ويميت كل تبدّل في هذه القاعدة طامساً معالم الصناعة والزراعة فيه، لأنه لا يريد أن يرتبط ببيئته الطبيعية. وكل طرح للمشكلة الاقتصادية في لبنان بمعزل عن المنطق القومي هو طرح ناقص وجزئي وغير سليم. **إن المشكلة الاقتصادية في لبنان غير منفصلة عن القضية القومية الكبرى. إن اقتصاد لبنان لا يعالج من ضمن منظور اقتصادي مجرد. إن المشكلة في الاقتصاد اللبناني هي انعزاله عن بيئته الطبيعية التي وحدها تؤمن الأسواق لمنتوجه الصناعي والزراعي.** وإن عزل لبنان عن بيئته الطبيعية يؤدي بدوره إلى خنق الصناعة وقتل الزراعة وتهجير المواطنين إلى المغتربات.. لا يمكننا أن نعالج المسألة اللبنانية الاقتصادية بمعزل عن هذه القواعد القومية المترابطة، لا يمكننا أن نعالج مشكلة المغتربين الذين ينزحون عن أرضنا بسيل متدفق يزداد يوماً عن يوم بتكريمهم وافدين إلى أرضهم، ونحن لم نحتفظ بهم في أرضهم مواطنين. لا نستطيع أن نعالج كساد مواسمنا الزراعية: تفاحنا في الجبل، وعنبنا في البقاع، وليموننا في الساحل بالتفتيش عن الأسواق الخارجية بينما أسواق البيئة الطبيعية موصدة دوننا، لأننا نحيا عصر التناقضات الكيانية معها، وليس لبنان وحده يحيا هذا العصر، بل الكيانات التي تطرح الوحدة الأبعد لتتخلف عن الوحدة الأقرب، مصدّعة الجبهة الشرقية في وجه إسرائيل، ومرتضية بالشعار البراق عن تحقيق الوجود العسكري الاقتصادي المنيع في وجه دولة الأعداء لتحرير الأرض المغتصبة.

القومية الاجتماعية
أقصى اليسار

ليس كل هذا الطرح ممكناً على أساس تجزئة الصورة، لأن الصورة متكاملة في شمولها، فالمشكلة في لبنان ليست مشكلة اقتصادية مجردة عن القاعدة القومية. إن النظام الاحتكاري الرأسمالي، الذي يندّد به كل اليساريين، والذي يرفضه كل اليساريين، ونحن منهم وفي طليعتهم، لا يمكن أن نراه مجرد فئة محتكرة تحاول أن تمتص دم الشعب، بل إن هذه الفئة المحتكرة قد أفرزها وأنبتها نظام الانعزال عن البيئة، الذي أقام اقتصاد الاحتكار، اقتصاد الخدمات، على حساب خنق الصناعة وقتل الزراعة التي أسواقها في بيئتنا الطبيعية.

إن المشكلة الاجتماعية في أمتنا غير منفصلة عن المشكلة القومية، وكل فصل بين هذين التوأمين إجهاض للشأن القومي وقتل للشأن الاجتماعي. **من هنا كان الطرح القومي الاجتماعي، هو الشمول الثوري اليساري. وكان الشأن القومي دون مضامين اجتماعية، هو اليمين الرجعي وكان طرح للشأن الاجتماعي من دون منطلقات قومية هو اليسار التقليدي الطفولي الذي يعتبر اليسار كتباً وشعارات ولا يعرفه واقع حياة في مجتمعنا والمجتمعات الأخرى. على هذا الأساس كانت القومية الاجتماعية في منظورنا هي أقصى اليسار.** أقول ذلك من دون عقدة، لا عقدة استعلاء ولا عقدة نقص، إنها أقصى اليسار لأنها تنطلق من الشأن القومي، الشأن القومي الذي اعتبر برجوازياً عند بعض فئات اليسار. أجل الشأن القومي كان برجوازياً في عصر ماركس في مرحلة الأمم الصناعية الجوارح التي كانت تريد من القومية التوسع على حساب المستعمرات. ولكن الشأن القومي في فلسطين حيث يفجّر الفدائيون نارهم ضد مغتصب دخيل ليس شأناً بورجوازياً بل شأن ثوري أصيل، بداية حرب قومية هي أقصى اليسار في رفض الاستعمار والاستغلال. فالشأن القومي ليس

واحداً ولا يمكن النظر إليه بمنظور واحد. ولقد اهتدى إلى هذه المقولة لينين وإن لم يكن قد نظّرها على صعيد النظرية الواسعة عندما قال بأن هناك قوميات مستعبَدة وقوميات مستعبِدة.

الأرض كلها للمنتجين

اذن، منطلقنا من الشأن القومي وضمن هذا الشمول ولكن ليس مجرد الانطلاق من الشأن القومي هو الذي يعطي الشمول بل النظرة العلمية إلى الشأن القومي. ففي "نشوء الأمم" تحديد لمعنى الأمة. الشأن القومي في عصر ماركس وفي المدرسة الأوروبية الكلاسيكية كان يعني روابط اللغة وروابط التاريخ وروابط الآمال والآلام، كان يعني تجريدات نفسية رومنسية. ومادية الماركسية في رفض هذه التجريدات الرومنسية محقة من حيث إنها ردة فعل على فعل، ولكن الشأن القومي عند سعاده ليس تجريدات رومنسية ولا تجريدات مادية إنه تفاعل متكامل حياتي مادي روحي. إن الأمة عند سعاده هي إنسان تفاعل مع أرض فنتج عن تفاعله المستمر دورة حياة اجتماعية اقتصادية هي محور الوجود الإنساني الاجتماعي. **انها أرض أنتج فيها الإنسان اقتصاده وما الاقتصاد إلا حصيلة هذا التفاعل المستمر بين الإنسان والأرض.** إن وسائل الإنتاج بل الإنتاج، كل عمليات الإنتاج، هي حصيلة تفاعل الجماعة البشرية مع البيئة الطبيعية. إن نظرة سعاده إلى الشأن القومي بهذه الأبعاد تستوعب أيضاً الشأن الاقتصادي الذي اعتبره سعاده الرابطة الاجتماعية الأولى في روابط المجتمع القومي. ولكن هذه الجماعة البشرية المتفاعلة مع بيئتها الطبيعية لا تنتج مجرد هذه العلاقة المادية المحضة. وهنا يكتشف سعاده في تحديده للامة والمجتمع **القومي البعد الآخر من الأبعاد الاجتماعية** لوجود الشأن القومي فيرى أن هذه العلاقة الوثيقة بين الإنسان والأرض، هذا الحنو الوثيق، كما يسمّيه، هذا الإثم الكنعاني هو حبّ الإنسان لبلاده واستشهاد الإنسان في سبيل بلاده لأن تراثه القومي، أمجاده التاريخية واستمرار حياة مجتمعه على هذه الأرض. **فليست علاقة الإنسان بـأرض وطنه مجرد إنتاج محصولات من الخير، هي كذلك، ولكنها أبعد من ذلك، هي ارتباط الإنسان بالأرض،** هي دفاع الإنسان عن الأرض وكأن في الأرض شرفه وكرامته وعزّه وعزّ ذراريه وأجياله المقبلة. وهذا هو الشأن القومي بأجلى ما يكون، **هو شأن نفسي مادي،** هو دفاع عن خير في الأرض ودفاع عن قيم الحياة المستمرة في الأرض. بهذا المنظور لم يعُد الشأن القومي عند سعاده رومنسياً ولا برجوازياً بل أصبح قومياً اجتماعياً، **لأن الأرض التي تحتضن الإنتاج تحتضن أيضاً المنتجين. والأرض، كما يقول سعاده في خطابه في دير الغزال، هي كلّها للمنتجين الذين ينتجون الخير فيها بسواعدهم. ويوصيهم سعاده أن يقتسموا هذا الخير اقتسام الأخوة القومية الاجتماعية فلا يكون بينهم ظالم أو مظلوم. إن القومية الاجتماعية هي قومية الأرض وهي قومية الإنسان في الأرض، الإنسان الحر السيد الشريف.**

إن القومية الاجتماعية ليست قومية منغلقة شوفينية. إنها قومية الحياة، فمتى اتسعت دورة الحياة كان اتساعها على مدى اتساع هذه الدورة من الحياة. وعندما أتعلّم أن أكون إنسانياً في اجتماعيتي القومية أستطيع إذا ما تطورت ظروف الحياة المادية النفسية وأصبح العالم كله أسرة واحدة أن أكون إنسانياً في مشاعري التي تعلّمتها انطلاقاً من قوميتي الاجتماعية.

القومية الاجتماعية

الثورة الرائدة التي يتّجه إليها العصر بتجارب أممه

*** نُشرت في مجلة "صباح الخير" بمناسبة الثامن من تموز بتاريخ 8 تموز 1975**

انهزام القوميات الإمبريالية لا يعني سقوط المقولة القومية بل تثبيتها

بعد الحرب العالمية الثانية شاع اعتقاد بأن عصر القوميات قد انتهى. وكان الباعث على شيوع هذا الاعتقاد أكثر من أن يُحصَر بعامل واحد. فمن جهة كانت أوروبا المتعبة من تصادم قومياتها في حربين استعماريتين جرّتا الدمار والخراب والموت والرعب على القارة الحزينة نتيجة تصادم الإمبراطوريات الأوروبية ومناطق نفوذها في العالم، كما في الحرب العالمية الأولى، أو مطالبة الدول التي فقدت امبراطورياتها في الحرب العالمية الأولى بمناطق نفوذ جديدة، وهذه المرة، على "المدى الحيوي الأوروبي"، كما في الحرب العالمية الثانية، إلا أن الحربين العالميتين كانتا حربين أوروبيتين إمبرياليتين.

أما العامل الآخر لشيوع الاعتقاد بانتهاء عصر القوميات، فقد كان مفتعلاً مصطنعاً من قبل أبواق الدعاية الاستعمارية في العالم بقصد تكريس الوضع الراهن العالمي الذي انتهت إليه محصلة الحرب العالمية الثانية، أي تكريس المنتصرين من السادة الإمبرياليين وتجميد أو تعطيل الانفجارات القومية في المستعمرات ضد الإمبرياليات التي انتصرت في الحرب العالمية الثانية. هنا ارتفع شعار الأممية والعالمية على أنقاض ما وصف بـ"عصر القوميات المنقضي". وهكذا أفادت الدعاوة الاستعمارية من انهزام القوميات الإمبريالية المتوسعة الألمانية والفاشية لتدخل في الروع أن القومية إطلاقاً هي شر انطوى غير مميزة عن قصد بين قوميات الأمم الثائرة لحقها المهدور في المستعمرات وقوميات الإمبرياليات المتوسّعة أو الطالبة التوسع.

ونقرأ لسعاده في ذلك الزمن في 9 تموز 1946، في عز موجة تسخيف القوميات بالجملة وتحميلها أثقال كل الخراب هذا الإيضاح العلمي الموضوعي: "إن مثل العبارات الاحتياطية التي عرضت لها آنفاً يصح في الشعوب التي رمت بنظرتها إلى الانعزال عن العالم وعن الاشتراك في الاجتهاد والإنتاج والإبداع الإنساني العام وفي الأمم التي أغرقت في قوميتها وهي في أشد الحاجة لإدراك شخصيتنا وجمال نفسيتنا الأصلية ولتوكيد ثقتنا بنفسنا ولمعرفة حقنا وفهم خيرنا، ولا خوف علينا من الانعزال لأن خطط نفسيتنا الأصلية ليست في هذا الاتجاه". ("شروح في العقيدة"، سعاده، ص. 71).

يميز هنا سعاده بين قوميات أمم "أغرقت في سلاليتها إلى حد الجنون" وبين "وعينا القومي" المستهدِف "توطيد ثقتنا بنفسنا ولمعرفة حقنا وفهم خيرنا" ويؤكد أن "لا خوف علينا من الانعزال لأن خطط نفسيتنا الاصلية ليست في هذا الاتجاه". وبعد سنوات يكتب سعاده في "حق الصراع هو حق التقدم" دحضاً للدعاوة الاستعمارية العالمية التي كانت تدعو إلى الوحدة الإنسانية والسلام العالمي الدائم فيقول: "ماذا تعني الوحدة الإنسانية والسلام العالمي الدائم؟ إنهما تعنيان الاستسلام للأمر المفعول والقناعة بالحالة الراهنة وعدم محاولة الانتفاض على شيء مما لم يكن إلا ما هو كائن في حالته الحاضرة وعدم تطلّب ما هو في حالته الحاضرة تغيير هذه الحالة. أما هذه الحالة فتعني تقدماً وغنى وسطوة لأمم معينة كانت صغيرة في البدء ثم نمت وكبُرت.. بالظروف المؤاتية والفرص السائحة وبسعادة الحظ أحياناً وبالحروب الاستعمارية وبالثورة الصناعية والاقتصاد القومي.. وهي تعني تقهقراً لأمم معينة كالأمة السورية.. فقدت سيادتها وتحكمت بمصيرها الإرادات الغريبة واستولت على أمورها وإمكانياتها".

ويتابع سعاده رده على الدعاية الاستعمارية الأممية بقوله "لا تعني الوحدة الإنسانية وحدة حقيقية لجميع الناس وتساوياً تاماً في التمتع بموارد الخير وفي توزيع المواد الأولية الموجودة في أمة واحدة في وحدة الحياة والشعور والنظر إلى الحياة". ("شروح في العقيدة"، سعاده، ص.ص. 166 – 167).

إن سعاده يدين النظام الإمبريالي الذي يصفه بـ"النظام الطبقي الانترنسيوني" الذي يضع طبقة من الأمم الاستعمارية ذات الامبراطوريات والمناطق الواسعة، وطبقة من الأمم المتوسعة وطبقة من الأمم المنحطة أو المضغوطة، المحرومة. وهو يدعو إلى نظام جديد داخلياً يقوم على أنقاض أنظمة الاستبداد الداخلي: "نظام الطبقات الرأسمالي ونظام الطبقات الإقطاعي" وعالمياً يقوم على المشاركة "في إقامة السلام الذي نرضى به"، السلام على أساس الحق القومي والتساوي بين الأمم والشعوب، وليس على أساس التنازل عنه لمصالح استعمارية.

ويُلاحظ أن اعتراض سعاده على السلام الإمبريالي والوحدة الإنسانية المطروحة على هذا الأساس يقوم على مقولتين: المقولة الأولى كشفه زيف هذا السلام الذي هو لمصلحة النظام الطبقي الانترنسيوني الذي يقيم هرم الأمم الاستعمارية والأمم المستعمَرة "المضغوطة أو المحرومة". والمقولة الثانية وهي الأساس، أن لا وحدة إنسانية طالما تتعذّر "صيرورة الناس أمة واحدة في وحدة الحياة..". فسعاده لا ينطلق إلى رفض هذه الحالة أو تلك إلا من منظور قومي اجتماعي علمي واضح. فهو في "نشوء الأمم" و"التعاليم" وكل تراثه الفكري – العقدي كان قد أرسى النظرة القومية الجديدة التي تعتبر الأمة وجوداً مادياً روحياً متكاملاً، وحدة حياة، دورة اجتماعية اقتصادية. وفي شروحه ومحاضراته وخطبه ورسائله ومقالاته أوضح سعاده ارتباط الوحدة القومية المتينة بالنظام الاجتماعي الاقتصادي الجديد.

وعلى هذا الأساس، كان حقاً القول، إن الذي انهار بعد الحرب العالمية الثانية هو النظرة القومية الكلاسيكية الأفقية الفوقية إلى الشأن القومي، المدارس الأوروبية وبتفرّعاتها الأميركية، ولكن عصر القومية الاجتماعية كان قد هلّ.

فما هي ملامح القومية الاجتماعية الأساسية وكيف تشكّل الفكر الثوري الرائد في العصر الذي يتجه إليه العالم وكيف أساء فهمها المسيئون وحاول تشويه معالمها المشوّهون؟

معالم القومية الاجتماعية الأساسية

القومية الاجتماعية أولاً، هي مفهوم للشأن القومي منبثق لا من التجريد النظري كما هو حال المدارس الأوروبية الرومانسية البورجوازية سواء الليبرالية أو الفاشية التي عرفتها أوروبا في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بل هي **مفهوم للشأن القومي يعتمد علم الاجتماع بديلاً عن التجريد النظري.** كل فلسفات فيخت وهيغل وماتنزيني وهوبز ولوك وروسو هي عمارات فلسفية تقوم على التجريد النظري، بينما أنطون سعاده **يقدّم نظرة منبثقة من علم الاجتماع. إن "نشوء الأمم"** كتابه الأساسي في هذا الشأن، هو دراسة في علم الاجتماع. والأمة على هذا الأساس هي المجتمع الأتمّ بكل خصائصه وعوامله. والبحث يجري حول الأمة باعتبارها مجتمعاً طبيعياً إزاء الدولة التي هي مجتمع اصطناعي ينشأ بإرادة الإنسان. أما الأمة – المجتمع الطبيعي، فتنشأ في مجرى التطور عن "التفاعل" بين جماعة من البشر تحيا حياة موحدة المصالح، موحدة المصير، موحدة العوامل النفسية – المادية في قطر معين ("نشوء الأمم"، سعاده، ص. 165). وهذا "التفاعل" الذي هو جوهر الأمة هو الذي يكسبها "خصائص ومزايا تميزها عن غيرها من الجماعات".

فالخصائص القومية ليست حدثاً قدرياً بل هي حصيلة هذا "التفاعل"، وعن هذا التفاعل الذي هو نقيض كل حتمية جغرافية أو مادية أو روحية ينشأ "الاتحاد في الحياة" أي تجري "حياة واحدة ذات دورة اجتماعية اقتصادية واحدة". وهي هذه الدورة التي تشد الأمة وتشكل رابطتها الأساسية بحيث إن "كل ميزة من ميزات الأمة أو صفة من صفاتها تابعة لمبدأ الاتحاد في الحياة الذي منه تنشأ التقاليد والعادات واللغة والأدب والدين والتاريخ" ("نشوء الأمم"، سعاده، ص. 165) بمعنى آخر "فالأمة أساس مادي يقوم عليه بناء روحي"، كما أعلن سعاده في بحث متقدم له في 1933، وهذا المفهوم القومي الاجتماعي للأمة اعتبر "الرابطة الاقتصادية

هي الرابطة الاجتماعية الأولى في حياة الإنسان والأساس المادي الذي يقيم الإنسان عليه عمرانه"، واعتبر "التطور الاجتماعي هو دائماً على نسبة التطور الاقتصادي" ("نشوء الأمم"، سعاده، ص.ص. 62 و63).

وهكذا تميّزت القومية الاجتماعية بأنها أعطت الاقتصاد أهمية وأولوية لم تفطن إليهما المدارس القومية الكلاسيكية بل حتى التحديد الماركسي اللينيني للأمة قصّر عن هذا المفهوم، لأن التحديد الماركسي اللينيني اعتبر أن الأمة تنشأ من أربعة عوامل هي اللغة والأرض والاقتصاد والعوامل النفسية، واعتبر هذه العوامل متساوية إلى حد أن انتفاء أي منها يبطل وجود الأمة. بينما اعتبر سعاده أن العوامل النفسية ("التقاليد والعادات والأدب والدين والتاريخ" واللغة) كلها تابعة لمبدأ "الاتحاد في الحياة" أي حياة واحدة "ذات دورة اجتماعية اقتصادية واحدة".

إلا أن الأهمية الأولى التي أعطيت للاقتصاد في المفهوم القومي الاجتماعي رفضت اعتباره الرابطة الوحيدة لأنه "لا يمكن الفصل عملياً بين الحياة ومقوماتها" ("نشوء الأمم"، سعاده، ص. 63). **فالرابطة الاقتصادية متقدمة على سائر الروابط الاجتماعية في الأهمية، ولكنها غير منفصلة عنها، عن الكل الاجتماعي، عن وحدة العوامل المادية – النفسية.**

على أساس هذا المفهوم القومي الاجتماعي الشمولي والعلمي يتأكّد أن الشأن القومي هو وجود حقيقي مادي – نفسي شامل لا يمكن تجاوزه ما لم يُزَل هذا الوجود الحقيقي بالذات. وأن سقوط النظرات الرومانسية أو البورجوازية أو الإمبريالية للشأن القومي لا يعني سقوط هذا الشأن الموضوعي بالذات بل يعني بحث العالم عن نظرة علمية شمولية إليه، وهو ما تقدّمه القومية الاجتماعية التي تميّزت بخاصتين أساسيتين أولاً دراسة الأمة باعتبارها المجتمع الإنساني – المتحد البشري الأتم، ثانياً ارتباط القضية القومية بالنظام الجديد.

ثانياً، إن القومية الاجتماعية بانطلاقها من التحديد العلمي الموضوعي للشأن القومي، كوجود موضوعي ثابت، كحقيقة إنسانية مادية – نفسية رفضت على أساس هذا الوعي للوجود الإنساني، الدعوة إلى وحدة إنسانية وهمية تستخدم لتبرير ملاشاة حق الأمم بالتساوي لمصلحة الأمم ذات الامبراطوريات الكبرى، واعتبرت حروب التحرير القومية التي يفجّرها الوعي القومي هي طريق المساواة الإنسانية الحقيقية، هي طريق إسقاط "النظام الطبقي الانترنسيوني" لمصلحة نظام انترنسيوني مرتكز على حقوق الشعوب المتساوية في الحرية والوجود. **من هنا كانت مباركة وكان تأييد سعاده "لثورة الشرق" لثورة الأمم المقهورة في آسيا وأفريقيا وسؤاله المبكر في 1925 "متى يأتي دورنا". من هنا إدانته في نداء الأول من أيار 1949 للإمبريالية بكل مظاهرها** "وإنه ليمكن القول إن الإقطاع الاقتصادي والرأسمالية المجحفة قد صارا دوليين، فقد حلّت بعض الدول في موارد العالم ومواده الأولية محل العائلات الإقطاعية في موارد الأمة وموارد الوطن ومحل الرأسمالي الفردي بالنسبة إلى الإنتاج والأسواق الأنترنسيونية". ومن هنا كان الصراع القومي الاجتماعي "مزدوجاً" ضد الإقطاع والرسمال الفرديين في الأمة المتحالفين مع الإقطاع والرسمال الانترنسيونيين. وطريق الثورة القومية الاجتماعية على الصعيدين الداخلي والانترنسيوني هو الوعي القومي المفجّر لحرب التحرير. "وإن انعدام الوعي القومي في شعبنا أفقدنا معظم مواردنا الأولية الهامة. فهناك بترول الموصل – منطقة الجزيرة وبترول النقب السوري وهناك أملاح البحر الميت التي وضع اليهود أيديهم عليها وهناك أراضي كيليكية والاسكندرون وفلسطين الخصبة التي انتزعت من السيادة السورية" "فالقومية والموارد الوطنية هي

أساس اجتماعيتنا وإن ما ينقذنا من الإعياء والوهن والشقاء هو قوميتنا الاجتماعية، هو وضع مواردنا تحت سيادتنا". (سعاده، المصدر نفسه).

الصراع على الموارد والأرض داخلياً وخارجياً

ليس أبلغ من هذا التعبير في تصوير أبعاد القومية الاجتماعية: إنها الصراع على الموارد والأرض بين الأمم الثائرة وإرادة الاستعمار بكل أشكاله الإمبريالية والاستيطانية العنصرية اليهودية. وكما هو صراع على الموارد ضد العدو الخارجي هو صراع على هذه الخيرات ضد الأعداء الداخليين الذين يحتكرون موارد الأمة لمصلحة فئة أو طبقة مستغلة. وكما هو ضروري "وضع مواردنا تحت سيادتنا" إزاء العدو الخارجي المغتصب أو المحتل بحرب التحرير، فضروري في الوقت نفسه "وضع مواردنا تحت سيادتنا" إزاء العدو الخارجي المغتصِب هذه الموارد، بالثورة التي تحرّر هذه الموارد من القلة المحتكرة لمصلحة الملايين من أبنا شعبنا "معظم الشعب" (نداء الأول من أيار) بل "العامل والفلاح الذي هو كل البلاد وكل الشعب"، كما يقول سعاده في خطاب دير الغزال الذي دعا فيه المنتجين إلى اقتسام خيرات الأرض بينهم اقتسام الأخوة القومية الاجتماعية لأن الأرض للأمة لا للأفراد. **فكما رفض سعاده الوحدة الإنسانية الوهمية لتستخدم لتبرير إخضاع الأمة لمصلحة المستعمر واستغلاله، رفض مفهوم الوحدة القومية على غير أساس العدل الاجتماعي الحقوقي والعدل الاقتصادي الحقوقي.** وهذه ميزة القومية الاجتماعية الثانية الكبرى أنها قرنت "الوحدة القومية المتينة" بالنظام الجديد. "وهذه الوحدة القومية القوية لا يمكن أن تحصل ضمن نظام اقتصادي سيئ، كما أنه لا يمكن أن تحصل ضمن نظام اجتماعي سيئ. فإقامة العدل الاجتماعي الحقوقي والعدل الاقتصادي الحقوقي أمر ضروري لفلاح النهضة السورية القومية الاجتماعية" (كتاب "التعاليم"، ص. 60).

فسعاده منذ البدء ربط ربطاً عضوياً لا انفكاك ولا انفصام فيه بين القضية القومية والنظام الاجتماعي الاقتصادي الجديد. وهو بهذا ميّز حزبه وثورته عن كل الأحزاب والثورات. "والحزب السوري القومي الاجتماعي هو الوحيد، من بين جميع الأحزاب السياسية - الاجتماعية - الاقتصادية، التي نشأت في العقود الاخيرة في أوروبا وأميركا، الذي أوجد عقيدته الاجتماعية منذ أول تأسيسه". "ففضلاً عن تعيين الأمة وتحديد القومية وإيجاد عقيدة وحدة الأمة، قد نظر الزعيم في مستقبل الأمة وما يجب أن تصل إليه من الارتقاء والبحبوحة والعدل الاجتماعي – الاقتصادي فوضع لهذه الغاية المبدأ الإصلاحي الذي يتضمن العقيدة الاجتماعية للسوريين القوميين الاجتماعيين وهو "إلغاء الإقطاع وتنظيم الاقتصاد القومي على أساس الإنتاج وإنصاف العمل وصيانة مصلحة الأمة والدولة". ويتابع سعاده "هذا المبدأ العظيم يوجد مجتمعاً جديداً في نظرته إلى القيم الاجتماعية وفي حركته ونشاطه وعاداته وتقاليده وأشياء أخرى". ("شروح العقيدة"، سعاده، ص.ص. 16 و17).

القومية الاجتماعية تشمل القضية القومية والنظام الجديد

واضح من هذه النصوص للزعيم أولاً أن المبدأ الإصلاحي الرابع الذي نص على النظام الاقتصادي الاجتماعي الجديد "يتضمن العقيدة الاجتماعية للسوريين القوميين الاجتماعيين".

ثانياً، أنه بالإضافة إلى القضية القومية المتمثلة في المبادئ الأساسية والتي هي "تعيين الأمة وتحديد القومية وإيجاد عقيدة وحدة الأمة" هناك "العقيدة الاجتماعية" التي تضمّنها المبدأ الإصلاحي الرابع، وأن القومية الاجتماعية تشمل القضية القومية والنظام الاجتماعي الاقتصادي الجديد معاً في وحدة عضوية كلية، من دون أن يحلّ أحدهما محل الآخر أو يلغي أحدهما الآخر. فالقومية الاجتماعية ليست القومية وحدها، أي ليست فقط قضية "تعيين الأمة وتحديد القومية وإيجاد عقيدة وحدة الأمة". وهذا هو منطلقها وأساسها، بل هي أيضاً "العقيدة الاجتماعية".

كما أنها ليست "العقيدة الاجتماعية" من دون الأساس القومي. من هنا إنها قضية مركبة قومية اجتماعية تشمل كل هذا في وحدة عضوية متماسكة. وكل حذف لأحد معالمها هو انحراف وتشويه لحقيقتها.

الاجتماعية تُعنى أولاً بالنظام الاقتصادي الجديد

ثالثاً، أن "العقيدة الاجتماعية" عند سعاده هي أولاً وقبل كل شيء النظام الاقتصادي الجديد. هكذا في النص أعلاه عند قوله: "فوضع لهذه الغاية المبدأ الإصلاحي الذي يتضمّن العقيدة الاجتماعية للسوريين القوميين الاجتماعيين". كما أنه واضح من نصوص أخرى مطابقة له. يقول سعاده في تصريحه إلى مجلة "كل شيء" في 31 تموز 1947: "أن لفظة "الاجتماعي" قد أضفتها أنا بنفسي على اسم الحزب والمقصود منها الدلالة على مذهب الحزب الاجتماعي المنصوص عليه في المبدأ الإصلاحي الرابع من مبادئ الحزب الإصلاحية. فهو لا يتضمّن أي تعديل في مبادئ الحزب والقضية القومية الاجتماعية القائمة على هذه المبادئ". والمبدأ الإصلاحي الرابع الذي "يدل على مذهب الحزب الاجتماعي" هو مبدأ إلغاء الإقطاع وتنظيم الاقتصاد القومي على أساس الإنتاج.. ويقول الزعيم في خطابه في "الطلبة نقطة ارتكاز وانطلاق العمل القومي الاجتماعي": "نسير إلى الحرب ليس فقط جماعة واحدة من الوجهة الروحية، بل من الوجهة الاجتماعية أيضاً. ليس لننصر إقطاعياً على إقطاعي أو رأسمالي بل لنكسب أرضاً لا يمكن أن نقيم فيها مستعبَدين من أنفسنا على أمتنا". ("شروح في العقيدة" ص. 178). وواضح من كل هذه النصوص أن "الوجهة الاجتماعية" هي المتعلقة بالنظام الاقتصادي الجديد "ليس لننصر إقطاعياً على إقطاعي أو رأسمالي بل لنكسب أرضاً لا يمكن أن نقيم فيها مستعبدين من أنفسنا على أمتنا. نسير محققين انتصاراً لشعب حر يتجمّع تحت علم أمته ودولته في نظام واحد ومجد واحد للجميع". فـ"العقيدة الاجتماعية" للسوريين القوميين الاجتماعيين في النص الاول "والمذهب الاجتماعي" للحزب في النص الثاني و"الوجهة الاجتماعية" من حربنا في النص الثالث كلها تُجمع على معنى واحد: النظام القومي الاجتماعي الجديد في علاقات الإنتاج وتنظيم الاقتصاد القومي.

ورغم أن الاجتماعية في فلسفة سعاده هي أشمل من الاقتصاد والشأن الاقتصادي بمعنى اشتمالها بالضرورة على العوامل النفسية والقيمية إلا أن نظرة سعاده إلى أن "الرابطة الاقتصادية هي الرابطة الاجتماعية الاولى" والى ان "التطور الاجتماعي هو على نسبة التطور الاقتصادي" (راجع نشوء الأمم، ص.) تفسّر لنا **كيف استخدم سعاده الاجتماعية والاجتماعي ليشير حصراً إلى الشأن الاقتصادي والى النظام الجديد المتضمّن في المبدأ الإصلاحي الرابع. نفهم ذلك كله في ضوء المنهج الأساسي الناظم لكل نظرة سعاده إلى الحياة، المنهج المدرحي الذي يرفض القيم في التجريد بل يؤكد اجتماعية القيم والوجود الإنساني التي لا تمكن إلا أن تتجسّد**

في نظام يؤكد سيطرة الجماعة على وسائل حياتها وإنتاجها بدلاً من سيطرة الفرد. وهذا النظام كما يقول سعاده "يوجد مجتمعاً جديداً في نظرته إلى القيم الاجتماعية"، أي أن النظرة إلى القيم الاجتماعية لا وجود لها خارج إطار التجسيد العملي في نظام جديد وعلاقات جديدة. هكذا في الوحدة الاجتماعية – الروحية وفي الوحدة الاجتماعية – المادية المتكاملتين في وحدة اجتماعية مادية – روحية. يقول سعاده في الاولى "كل أمة تريد أن تحيا حياة حرة مستقلة تبلغ فيها مثلها العليا يجب أن تكون ذات وحدة روحية متينة. والوحدة الروحية المتينة لا يمكن أن تنشأ في حال انعزال كل جماعة من جماعات الأمة الدينية ضمن نطاق اجتماعي – حقوقي انعزالاً يجعل منها نفسية وعقلية مستقلتين عن نفسيات وعقليات الجماعات الأخرى لئلا ينشأ عن ذلك اختلاف في الأغراض والأهداف. من هنا "الحواجز الاجتماعية – الحقوقية بين طوائف الأمة تعني إبقاء داء الحزبيات الدينية الوبيل. فيجب تحطيم الحواجز المذكورة بجعل الوحدة القومية حقيقة، ولإقامة النظام القومي الاجتماعي الذي يهب الأمة الصحة والعافية" (كتاب "التعاليم" ص 54 و55).

وهذا هو الذي يجعلنا "جماعة واحدة من الوجهة الروحية... فلا نكون زاحفين لنظهر فئة دينية على فئة مضمرين كل واحد لأخيه غير ما يظهر له". "شروح العقيدة" ص. 178) فحسب هذه النصوص وحدتنا الروحية تتمّ بزوال الحواجز بين الطوائف والمذاهب فلا نزحف إلى حرب التحرير "لنظهر فئة دينية على فئة"، ووحدتنا الاجتماعية تتم بزوال الحواجز الطبقية الإقطاعية والرأسمالية فلا "ننصر إقطاعياً أو رأسمالياً على رأسمالي ولا نقيم مستعبدين من أنفسنا على أمتنا". والنظام القومي الاجتماعي الجديد هو تجسيد كل هذا: وحدة روحية بزوال الحواجز الطائفية ووحدة اجتماعية بزوال الاستغلال الفردي والفئوي بإلغاء الإقطاع والقضاء على الاحتكار والطغيان الرأسماليين.

والمعادلة الفذة التي أوجدها سعاده في القومية الاجتماعية فامتاز بها عن كل حركات العصر ومذاهبه، هي أن القضية القومية ملتحمة بالنظام الاجتماعي الاقتصادي الجديد. وبحيث إن القضية القومية لا تقوم من دون هذا النظام الجديد. وبحيث إن هذا النظام الجديد ليس غاية بذاته، بل هو ضرورة واجبة للقضية القومية لأن الوحدة القومية المتينة لا يمكن أن تتم في ظل نظام اقتصادي سيئ أو نظام اجتماعي سيئ؛ هكذا يعمل سعاده فيعطي للوحدة القومية والقضية القومية أبعادهما الاجتماعية. والنظام الجديد لا قيام له إلا على أرض القضية القومية الصلبة، لأن النضال في سبيل نظام جديد خارج القضية القومية ينزلق إلى أممية مائعة على حساب الحق القومي تقبل كما قبلت الشيوعية في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات بالتساوي "بين عمال سوريين يتساقطون بالمرض والفقر والبطالة والحرمان وعمال يهود يغتصبون موارد العمال السوريين" من هنا كان نداء سعاده إلى العمال والمزارعين من أبناء شعبنا في أول أيار 1949 إلى أن يكون صراعهم المزدوج مؤسساً على القضية القومية: "وتحتم هذه الحقيقة وعي العمال والمزارعين لقوميتهم ووحدة حقوق أمتهم ووحدة مصيرها ووحدة موارد شعبهم الطبيعية ووحدة إنتاجهم القومي كمية ونوعية وقيمة. ويجب أن يعلم العمال السوريون في جميع الدول السورية أن العمال في الدول الإقطاعية والرأسمالية الانترنسيونية هم عمال إقطاعيون ورأسماليون انترنسيونياً"، أي لا يمكن للاممية العمالية ان تحجب المصالح القومية المتناقضة بين الدول الاستعمارية والأمم الثائرة وان المنطلق القومي هو المنطلق الثوري الأساسي.

تجارب العصر تؤكد مع سعاده إدانة

طلب العدل الاجتماعي بمعزل عن القضية القومية

أو الدعوة إلى الوحدة القومية من دون النظام الجديد

الا ان ارساء الثورة على المنطلق القومي الأساسي لم يجعل سعاده يغفل في لحظة واحدة عن المضمون الاجتماعي لهذا المنطلق الأساسي. فكما أدان الحركات المقلوعة الجذور قومياً لأنها تنزلق إلى التساوي بين الحق القومي والاغتصاب رافضاً أي عدل اجتماعي اقتصادي إلا على قاعدة القضية القومية والولاء القومي، فقد أدان توهّم إمكان تحقيق الوحدة القومية المتينة خارج إطار النظام الجديد. بهذا كان شمول القومية الاجتماعية وثوريتها المميزة عن كل حركات وثورات العصر.

إن سعاده قد حدد الأمة وجوداً مادياً نفسياً، دورة حياة اجتماعية اقتصادية، مركّباً اجتماعياً – اقتصادياً – نفسياً (راجع مقدمة "نشوء الأمم" وفصل "الاثم الكنعاني" الأخير)، ولكن شمول التحديد القومي الاجتماعي للأمة واعتباره الاقتصاد زاوية أساسية من هذا الوجود القومي لا يعني اشتمال القضية القومية على النظام الجديد. ذلك أن الوحدة القومية قد تتحقق في ظل نظام رأسمالي إقطاعي، كما حدث في المانيا وفرنسا ودول أوروبا في القرن الثامن عشر؛ أو في ظل نظام ثيوقراطي، كما حدث في انكلترا في القرن السادس عشر. ولكن هذه الوحدة القومية هي غير النظام الجديد، والقومية الاجتماعية هي المعادلة المركبة الفذة التي قرنت القضية القومية بالنظام الجديد.

العصر بكل تجاربه يتجه إلى القومية الاجتماعية

ومن هنا أن العصر بكل تجاربه يتجه إليها فهي المشعل الهادي، ومن هنا أسيء فهمها يميناً ويساراً من قبل الذين اجتزأوا فهمها من خارجها أو الذين انحرفوا عنها من الداخل.

أما أن العصر متّجه اليها فيتضح من مراجعة تجارب أممه وخبراتها وتوارثها. فالوحدات القومية التي ترعرع في ظلها فكر أوروبا القومي الليبرالي والثيوقراطي أو الفاشي كلها تعاني من افتقارها إلى المفهوم القومي الاجتماعي الأشمل. فبريطانيا عانت في العقدين الأخيرين من الزمن، لا من المشكلات الاقتصادية الاجتماعية الحادة التي عصفت بها فحسب، بل من مشكلات التفتت الاتني والديني التي أفرزتها المسألة الايرلندية في صراع البروتستانت والكاثوليك. وتأكد أن الصيغة الثيوقراطية الإقطاعية التي تمّت في ظلها الوحدة البريطانية لم تستطع رغم استمرارية طويلة قامت على تزاوج الكبت والتقاليد والمصالح ان تكون صيغة ثابتة دائمة. فالانفجار الطائفي العنصري في ايرلندا ونمو نزعة الاستقلال الاسكتلندية في "الحزب القومي الاسكتلندي" الذي أصبح له نواب عديدون في البرلمان، دلائل ومؤشرات على بروز التناقضات الطائفية والعنصرية والإقليمية بعد ثلاثة قرون من تحقيق الوحدة البريطانية على غير الأساس القومي الاجتماعي.

إن رمز التاج لم يعد كافياً لجمع الأمة ولا سيما وأن صاحب التاج هو حامي حمى الإيمان الديني للدولة. ولقد بادرت كندا بعد أن كادت تنشطر دينياً وعنصرياً إلى الإنماء الاقتصادي، إلى الدورة الاجتماعية

الاقتصادية وتعزيزها ورفع الحواجز من أمامها سبيلاً وحيداً لتدعيم وحدتها فأكدت في التطبيق صوابية النظرة القومية الاجتماعية القائلة بأن أصل الأمة في وحدة حياتها!

وتواجه أمم الغرب الأوروبي الليبرالي اليوم ما حذرها منه سعاده في 1943 يوم كتب دراسته الراقية والمتقدمة جداً "العقيدة السورية القومية الاجتماعية وبحث الديمقراطية عن عقيدة" إذ قال:

"وعبثا حاول "الديمكراتيون" الضرب على وتر الديمكراتية لإنهاض الهمم وبعث النشاط في النفوس. لأن الشعوب كانت متخمة من الديمكراتية الرسمالية التي أصبحت كابوس العامل والفلاح. مما لا شك فيه أن المحافظين الإقطاعيين والرسماليين في بريطانيا والرسماليين في الولايات المتحدة لا يعجبهم تبديل الديمكراتية في أشكالها المعروفة التي سهلت لهم الوصول إلى ثرواتهم الفاحشة من أسهل الطرق". ("شروح العقيدة" ص. 13). ووجد سعاده أن بحث الديمقراطية السياسية الليبرالية عن عقيدة اجتماعية اقتصادية على طريقة حزب العمال البريطاني كان يجري لأن "حالة الحرب هي التي تضغط على بريطانيا والولايات المتحدة للاهتمام بالناحية الاجتماعية من الحرب". **وفعلاً حاول الغرب بعد الحرب العالمية الثانية أن يحتوي المشكلة الاجتماعية الاقتصادية بالإصلاحات من ضمن النظام. ولكن الراهن الآن هو أن هذه المحاولة قد فشلت لأن الترقيع في النظام الرأسمالي لا يُجدي. فكل الحلول الوسيطة فشلت وها هي البرتغال أولاً ثم ايطاليا وربّما فرنسا في الغد على طريق الحلول الأكثر جذرية تشهد أفول النظام الرأسمالي حتى منقحاً بالتأميمات.**

أما العالم الاشتراكي الذي رفع راية الأممية واعتبر القومية مقولة عصر الرأسمالية الصاعدة في أطروحة ستالين عن "المسألة القومية والماركسية" وانتظر الفردوس الأممي للشيوعية فقد وجد نفسه إزاء ظاهرة **التأقلم القومي أولاً ثم التناقضات القومية التي مزقت وحدته العقائدية وأقامت المحاور من ضمنه. وظهر أن حتى علاقات الإنتاج الواحدة لا يمكن أن تزيل مصالح دورات الإنتاج القومية المتباينة. فالنظرة العمودية إلى الاقتصاد على أنه صراع طبقات خارج على أو متحكم بدورة الحياة الاقتصادية ومصالحها القومية كانت نظرة تجريدية إلى الواقع الاجتماعي رغم كل ماديتها الفلسفية.** ذلك أن قيام ديكتاتورية البروليتاريا في الاتحاد السوفياتي أو الصين لم ينف نتاقض المصالح الاقتصادية القومية. والصراع الدائر على سيبيريا أي صراع اقتصادي قومي. واتضح بجلاء أن الشأن الاقتصادي ليس نظاماً جديداً في فراغ قومي بل هو تنظيم للاقتصاد القومي، للدورة الاقتصادية الاجتماعية الواحدة بشكل معين. وأن خطيئة اليمين القومي والنظرة الكلاسيكية **البرجوازية إلى الشأن القومي كان في إسقاطهما أهمية علاقات الإنتاج وتنظيم الاقتصاد على أساس الإنتاج ومبدأ إلغاء الاستغلال الفئوي والفردي، ولكن عيب اليسار المقلوع الجذور هو في بحث موضوعة النظام الجديد والاشتراكية خارج القضية القومية، قضية الوجود الإنساني الثابت في الأرض ومواردها.**

وليس هذا على صعيد الأمم التي أقامت أنظمتها الاشتراكية فحسب، بل على صعيد الأمم التي ناضلت في سبيل ذلك. فقد أدركت كل من كوريا وفيتنام أن طريق الثورة هي في حرب التحرير القومية. فكانت وحدة الوطن القومية وإسقاط حدود التجزئة الاستعمارية وتوحيد البلاد قومياً هي الحافز الكبير وراء حروب التحرير هذه. هكذا حين سقطت سايغون وهكذا عندما تسقط سيول. وقام مذهب "الزوشا" الكوري لكيم ال سونغ على أساس قومي واضح. وتأكد أن الاشتراكية في هذه البلدان هي جزء من الثورة القومية وليست بديلاً عنها.

يتبين من هذا كله أن الغرب الليبرالي يجد اليوم نفسه إزاء حقيقتين استشملتهما القومية الاجتماعية أصلاً:

1- فقدان المضمون الاجتماعي الاقتصادي للثورة.

2- فقدان الشمول الاجتماعي والتحديد العلمي لموضوعة الوحدة القومية، بحيث إن إرساءها على العصبية الدينية والعنصرية المنافية لوحدة الحياة أدّى ويؤدي إلى تصديع هذه الوحدة.

ويتبين من جهة أخرى أن الشرق الشيوعي وحّد نفسه أمام حقيقتين اشتملت عليهما القومية الاجتماعية:
1- حقيقة الواقع القومي الموضوعية التي لا يمكن تخطيها ولا تجاوزها بأية دعوة أممية تتجاهل الوجود المجتمعي للأمم.

2- أن النظام الجديد لا يمكن أن ينشأ في فراغ قومي، بل هو حتماً خاضع في نشوئه وتفصيله لحاجات الأمة ومرحلة تطورها وتراثها التاريخي. ويجد العالم الثالث الثائر نفسه إزاء حقيقتين استشملتهما القومية الاجتماعية أصلاً:

1- إن الثورة لا يمكن أن تكون إلا من منطلق قومي وإن حرب التحرير القومية هي النطاق الثوري الأوحد لكل التغييرات الاجتماعية الاقتصادية.

2- أن حرب التحرير والوحدة القومية لا يمكن قيامها من دون مضمون اجتماعي اقتصادي، أي من دون نظام جديد.

هذه كلها مقولات سعاده الأساسية التي يتجه إليها العصر بكل تجارب أممه.

القومية الاجتماعية والتجارب الإنسانية الأخرى

وإن فهمنا لشمولية العقيدة القومية الاجتماعية وريادتها الفكرية والثورية في العصر يبين بجلاء أسباب الانحرافات عنها يميناً أو يساراً. إن الذين انحرفوا عنها تخلّفوا عن الإحاطة بشموليتها الفذة ولم يعتمدوا منهجيتها هي في التحليل العلمي العقلي الذي وضعه سعاده. ذلك أن كلاً من المفهوم الحرفي الضيّق الخارج على منهجية سعاده وأصوله بمعارضة المنهج بالاجتزاء الحرفي والمفهوم المتفلّت من منهجية سعاده وأصوله إلى منهجيات أخرى، لا يستطيع، لا هذا ولا ذاك، إدراك آفاق العصر والتجارب الأخرى ليسبر أغوار القومية الاجتماعية وعمقها وشمولها وريادتها.

إن سعاده تطلع إلى تجارب الإنسانية بنظرة إيجابية، ولكنها موضوعية نقادة مقارنة في الوقت نفسه. فهو يقدّر مسيرة التقدم في العالم ويقدر التجارب الأخرى، لكنه يبين الشمولية التي تنطلق منها القومية الاجتماعية متجاوزة ما قبلها مع تسجيل التقدير لما أنجز. فهو لم ينظر إلى "الرجعيات في اليمين كما في اليسار" محقراً كل ما حوله بل اعتبر "أن النظريات الاجتماعية الاقتصادية من كارل ماركس وانغلز إلى الاجتماعيين الاقتصاديين الجدد قد ألقت نوراً قوياً على مشاكل المجتمع الإنساني الاقتصادي، ولكن الاشتراكية لم تتمكن من حل القضايا الإنسانية الاجتماعية المعقدة". ("شروح في العقيدة"، ص. 18).

وهذا الدور في حل القضايا الإنسانية الاجتماعية المعقدة الذي هو دور الفلسفة السورية القومية الاجتماعية لا يبدأ بالارتداد عن الاشتراكية إلى موقع وسط بينها وبين الرأسمالية وادعاء أن هذا هو النقاء العقدي، بل هو من الشمول والعمق بحيث يتجاوز الاشتراكية إلى ما هو أكثر تقدماً وجذرية وشمولاً وثورية.

إنه يأخذ على الاشتراكية الماركسية، أولاً، لا قوميتها المناقضة لواقع البشرية الذي هو واقع أمم ودورات اجتماعية اقتصادية متعددة، ويعتبر أن هذه الأممية في ظروف العالم وواقعه تصبح أداة إخضاع باقي الأمم لمحور قومي متسلّط؛ وهو ما فجّر العالم الشيوعي بعد استشهاد سعاده وعلى مدى ربع القرن الأخير. وهو ثانياً، يأخذ عليها بعدها المادي الأحادي في فلسفتها الحتمية التي تفسر التطور الاجتماعي تفسيراً مادياً محضاً تأكدت جزئيته في إغفاله وحدة العوامل المادية والنفسية. ولقد أكدت التجارب أن نظرة سعاده المدرحية هي الأكثر شمولاً، فالثورة في العصر الحديث لا يمكن ردها إلى الاستقطاب الطبقي الذي تنبأت به الماركسية في المجتمع الصناعي المتقدّم لأن الثورة في العالم الثالث كانت انفجاراً تداخلت فيه عوامل مادية – نفسية واتضح أن خزانات الثورة متعددة منها التعسف الرأسمالي والإقطاعي في علاقات الإنتاج المشدود إلى التعسف الإمبريالي، ومنها السحق النفسي الذي تعاني منه الشعوب المقهورة أو الجيوش المدحورة أو الطلاب في معاناتهم من تناقض الوعي مع الأوضاع الرديئة في مجتمعهم الماسخة إنسانية الإنسان.

ومقولة الثورة الأساسية في العالم المحطّم قيود الاستعمار كانت مقولة الأمة المقهورة أكثر منها الطبقة المغبونة. والأمة المقهورة فجّر ثورتها الحزب الثوري الذي استطاع **إشعال فتيل الخزانات المتعددة بالوعي الثوري الذي يدلّ من خلال وعي "مَن نحن" وتعيين الأمة وبعث تراثها وتحديد وطنها وتأكيد سيادتها القومية عليها، على الأعداء الخارجيين الطامسين هويتها. المجزئين وطنها،** المغتصبين أرضها، الناهبين خيراتها ومواردها الممتهنين سيادتها وكرامتها. ويدلّ من خلال اهتمامه بمستقبل الأمة وازدهارها ومصير إنسانها المنتج على الأعداء الداخليين القابضين على النظام القديم المهترئ المقعِد الأمة عن النهوض بالحواجز الطائفية والقبلية بين أبنائها وبالتقاليد التي فقدت مبرر الحياة وبالاستبداد الطبقي الإقطاعي والرأسمالي مطية الاستعباد الخارجي الإمبريالي. **فتكون الثورة على هؤلاء جميعا، أعداء خارجيين وأعداء داخليين، قومية اجتماعية، وتصبّ الخزانات المتعددة في أتون ثورة واحدة.**

وهو ثالثا، أكد أن تغيير علاقات الإنتاج، تغيير النظام الاجتماعي الاقتصادي، وإن كان ضروريا وهدفا رئيسيا من أهداف الثورة وجزءاً من غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي، إلا انه ليس **كل شيء ما لم يكن هذا النظام الجديد على قياس الإنسان الجديد، فكانت ثورة المفاهيم في الإنسان هي الوجه الآخر لثورة التغيير في النظام،** وما وصلت اليه الصين مثلاً من ضرورة إلحاق الثورة الاقتصادية في علاقات الإنتاج بالثورة الثقافية في مفاهيم الإنسان، هو في مفهوم الثورة القومية الاجتماعية أصلاً في ثورة واحدة قومية اجتماعية ثقافية اقتصادية اجتماعية في الإنسان والنظام معاً. ومن هنا ان الاشتراكية التي غيرت علاقات الإنتاج "لم تتمكن من حل القضايا الإنسانية المعقدة"، ومن هنا ان علل الأمة ليست فقط اجتماعية بمعنى اقتصادي بحت أو سياسي محض، بل هناك قضيتان أساسيتان من دون حلهما تبقى العلل آخذة بعضها برقاب بعض وهما قضية المجتمع بكامله – قضية وجوده وشخصيته الحقوقية والسياسية – وقضية المجتمع ومناقبيته. إن الأمم التي تعالج مشاكل الاجتماع الاقتصادي، على انها هي كل مشاكلها، هي أمم قد حلت من زمان القضيتين الأساسيتين المذكورتين، والأمم التي لم تحلهما قد يفيدها تطبيق بعض الجزئيات، ولكنها لا تخرج بواسطته

إلى حياة جديدة وعهد جديد". أراد سعاده "حركة خلق تأسيسية"، شاملة جميع نواحي الحياة، فمع تأكيده أهمية النظام الجديد رمى إلى أن يكون ذلك جزءاً من أهداف الحركة وغايتها لا كل هذه الغاية. وهذا معنى الشمول الذي لا يغفل الأجزاء.

القومية الاجتماعية تتجاوز الماركسية

إلى تجربة ثورية أضخم

التمركس هو انحراف مراهقة يسارية

عن القومية الاجتماعية

من هنا، فإن القومية الاجتماعية تنتقد الماركسية لا لتنتكس عنها إلى زاوية أو موقع الفرد والفردانية ولا إلى موقع أو زاوية الطبقة المستغلّة، ولا إلى موقع أو زاوية الضبابية الروحية، وكل هذه ترفضها القومية الاجتماعية رفضاً قاطعاً، بل هي تنتقد الماركسية كتجربة معاصرة ضخمة لتتجاوزها بالشمول الثوري والمنطلق الفلسفي والتحليل العلمي إلى تجربة ثورية معاصرة أضخم، إلى عصر جديد وإنسان جديد ونظام جديد.

إن القومية الاجتماعية تنطلق من الواقع الاجتماعي، واقع القوميات الذي تتأقلم الماركسية المعاصرة به لتجدد ثوريتها بهذا التأقلم. وتنطلق القومية الاجتماعية من الشمول في المنهج المدرحي لتحليل التطور الاجتماعي، فلا تغفل الشأن المادي ولا الشأن الاقتصادي بل تعتبرهما الشأن الاول والرابطة الاجتماعية الاولى، ولكنها تؤكد العوامل الأخرى، **بحيث إن الانحراف عن القومية الاجتماعية إلى الماركسية والتمركس، هو ارتداد عن تجارب الأمم الشيوعية نفسها وخبراتها إلى الكتاب والحرف والدوغماتية من دون الإفادة من مؤشرات العصر واتجاه هذه التجارب الحية، بصورة أو بأخرى، نحو القومية الاجتماعية. إنه انحراف مراهقة يسارية عن اليسار الحقيقي والرفض والثورة الحقيقيتين، كما تتمثل كلها بأجلى ما يكون في القومية الاجتماعية.**

إن هذا الانحراف عن العقيدة القومية الاجتماعية قد حصل متأثراً بتجارب وأفكار أولئك الذين بهرتهم الماركسية بكل فلسفتها وتحليلها وخبراتها وقد استيقظ هؤلاء المبهورون من ليل الرومانسية المعتم ومفاهيمها الضبابية إلى الشأن القومي فوجدوا في الماركسية ضالتهم في التحليل والتعليل بعد أن عجز المفهوم الرومانسي للشأن القومي عن إرواء ظمئهم إلى المعرفة الاجتماعية ومقولة العدل الاجتماعي الاقتصادي. **ولقد اعتبر هؤلاء المرتدون عن القومية الرومانسية في العالم العربي إلى الماركسية أن القومية، كل نظرة قومية، هي رومانسية تأثراً بإرثهم هم الفكري، ولم يميزوا بين المدرسة العلمية في هذا الشأن القومي التي أرسى دعائمها سعاده في علم الاجتماع، وبين نظراتهم الرومانسية التي تخلوا عنها.** وعلى أساس هذا الاعتبار كتبوا في "الحرية" و"البلاغ" خلال السنوات الثلاث الماضية مؤكدين أن التقدمية والاجتماعية واليسار لا يمكن أن ترسى على الشأن القومي وبالتالي على مفاهيم سعاده الأساسية.

ولقد تأثر بهؤلاء الدعاة المفجوعين بتجربة قومية رومانسية بعض من انحراف عن العقيدة القومية الاجتماعية وخرج عليها. فكتب هؤلاء الخوارج على العقيدة، في "الحرية" و"دراسات عربية" من موقع الاغترار بالنفس يغرفون من مقولات نقض بعضها أصحابها في التطبيق، ويغرفون تارة أخرى من مفاهيم وتعابير المدرسة الرومانسية التي نبذها أصحابها، مُصرّين على إثبات تقدميتهم بالتطاول على سعاده وإرثه الفكري والنضالي، محاولين تقييم سعاده وفكره ومدرسته العقائدية ونهضته القومية الاجتماعية وثورته في إطار كتبي متلهّف إلى التزويق وارتداء أزياء معاصرة، ومسقطين التجربة الرائدة التي أضاء بها طريق الأمم في هذا العصر ومسقطين تجارب الأمم الشيوعية نفسها في عودتها إلى الواقع القومي لتؤقلم نظامها الجديد على أساسه في مواءمة بين الشأنين القومي والاجتماعي لم تحتج إلى مثلها مدرسة الفكر القومي الاجتماعي في وعيها وحدتهما العضوية أساساً.

ولقد وقع هؤلاء في فخ وصم القومية بالفاشية تماماً كما وقع من قبل كل التراث الماركسي السابق الذي اعتبر القومية شأناً برجوازياً وهو ما نقده الماركسيون المعاصرون وتراجعوا عنه، بل وهو أدانه ونقد ذاته على أساسه الحزب الشيوعي اللبناني، وهو الحزب الذي تتجه إلى الانضمام إليه المنظمات التي التحق بها هؤلاء المتمركسون المنحرفون عن العقيدة القومية الاجتماعية.

"وينبغي الاعتراف بصراحة أن مرد ذلك وأساسه هو استصغار وإهمال القضايا القومية وعدم فهمها بشكل موضوعي، بمرحلة طويلة وعدم رؤية طبيعتها الثورية. وكان ذلك ناتجاً عن النظرة الخاطئة، النظرة من الخارج، إلى القضايا القومية، واعتبارها قضية البرجوازية وحدها، كأنما العمال والفلاحون والجماهير الشعبية لا تتحسس بالمشاعر القومية، ولا تحرّكها القضايا القومية" (من النقد الذاتي للحزب الشيوعي اللبناني 1968).

وفي مطلع هذه المرحلة قال سعاده في 12 تموز 1937: "وجاءت الشيوعية مع الجوالي الأجنبية تزيد الطين بلة وقد جلبت معها النظرة الأفقية في المسائل الاجتماعية وهي النظرة اللاقومية القائلة بحرب الطبقات في جبهة عامة من العمال لا ترى وطناً، ولا تعرف قومية ولا تشعر بعصبية غير عصبية الطبقية". (سعاده، مقال "شق الطريق لتحيا سورية") وآية الخطأ الكبير عند هؤلاء المنحرفين الخوارج أنهم اقتلعوا مقولة النظام الجديد من تربتها القومية فبات تفكيرهم من دون جذور، إذ إن البحث عن النظام الجديد خارج المقولة القومية يقع في فخ الوسطية والانتهازية ومسايرة الاستعمار والقبول بالتعايش مع الصهيونية. مقولة الثورة الأساسية هي المقولة القومية المصادمة الاستعمار والصهيونية في حرب التحرير التي على أرضها يجري النضال في سبيل النظام الجديد. إن عصر القومية الليبرالية والفاشية والكلاسيكية قد سقط. وإن عصر اليسار المقلوع الجذور القومية المحلق في ضباب الأممية المائعة قد سقط.

منذ البدء امتلكت القومية الاجتماعية

القواعد والأصول لريادة العصر

إن الحقيقة بشمولها الثوري هي في القومية الاجتماعية، هذه هي حقيقة العصر الأساسية ومؤشره الكبير.

وإذا كان الحزب الشيوعي اللبناني يستطيع أن ينقد ذاته ويدين تاريخه السابق لأنه أسقط المقولة القومية بعد أن عاد إليها العالم الشيوعي كله مقولة ثورية أساسية. وإذا كانت التجارب الثورية العربية المعاصرة تؤكد أن إنجازها الكبير الذي تحقق على يديها هو في مواءمة الفكر القومي والاشتراكية مواءمة عسيرة نظراً لفقدان فكرها القومي أساساً للمقولة الاقتصادية، بحيث بدت هذه المواءمة في كثير من الأحيان متسمة بطابع الاكلينيكية اكثر منها بطابع الاصالة، فإن سعاده انطلق من الوحدة العضوية للثورة القومية الاجتماعية التي ارتكزت إلى المقولة القومية أرضاً ثابتة للواقع الاجتماعي بمفهومها الشمولي للدورة الاجتماعية الاقتصادية للامة، وبتأكيد المقولة الاجتماعية في النظام الجديد الذي نصت عليه غايتها ومبادؤها الإصلاحية. فهي استشرفت من الأساس منذ انبثاقها، ومن دون غيرها من الحركات والثورات في شمولية فذة وعلمية رصينة وثورية قصوى اقتران التحرر القومي بالتحرر الاجتماعي من الاستعبادين الداخلي والخارجي في وحدة عضوية لا انفصام ولا ثنائية فيها.

"نحن حاربنا ونحارب الاستعباد الداخلي الذي يتخذ من الإقطاعية والرأسمالية والتكالب على المصالح والمنافع واسطة وشكلاً، الاستعباد الداخلي الذي كان حليفاً للاستعباد الخارجي والذي لولاه ما فقدنا كيليكيا والاسكندرون وفلسطين" **(سعاده في الأول من آذار).**

"نهضتنا تريد أن تحرّر الآلة من استبداد النظرة الفردية لأن تحريرها تحرير مئات وألوف من الناس". **"المحاضرات العشر"، ص. 140).**

"إن النظام الاقتصاي السيئ الذي يجعل مئات وألوفاً من الفلاحين في حالة شظف العيش، في حالة من الجهل، في حالة من المرض والبؤس، لا يمكّن دولة عصرية من تثبيت نفسها في تنازع البقاء إذا احتاجت الدولة إلى هؤلاء الالوف في حالة حرب مثلاً، وجدت أنها لا يمكنها أن تستند إليهم في الحرب فكيف تستند إلى رجل خمدت في نفسه عوامل الحياة وشوّهته الأمراض وأقعده الذل ليكون بطلاً يحارب بكل قلبه وكل نفسه من أجل وطنه وأمته اللذين يجد فيهما تحقيقاً للحياة المثلى التي يريد ويطمئن أن يحياها. ولذلك يقول المبدأ "صيانة مصلحة الأمة والدولة" (المحاضرات العشر"، ص. 137). فصيانة مصلحة الأمة والدولة عند سعاده تكون بدكّ النظام الاقتصادي السيئ الذي يجعل "مئات وألوفاً من الفلاحين في حالة من شظف العيش" و"تحرير الآلة من استبداد النظرة الفردية لأن تحريرها، تحرير مئات وألوف من الناس".

فإذا كانت القومية الاجتماعية قد استشرفت منذ انطلاقها مؤشرات العصر ورسمت طريقه، فلا يمكن تعييرها بالتقصير، الذي حلّ بعد استشهاد المعلم، بعدم وضع تفاصيل النظام الجديد طالما أن قواعده ومنطلقاته وأسسه قد أرساها سعاده قبل الاستشهاد. ولقد وعى سعاده الحاجة إلى ذلك في ختام المحاضرة الثامنة: "أظن أن ما قلناه الآن يكفي تمهيداً لهذا البحث الذي يجب أن يتناول في المستقبل محاضرات اختصاصية في كل باب وناحية من نواحيه، ليعطي صورة حقيقية عن النظام القومي الاجتماعي". ("المحاضرات العشر" ص. 140).

ولكن الافتقار إلى هذه الدراسات الاختصاصية بعد إرساء القواعد والمنطلقات لا يضاهي الافتقار إلى هذه القواعد والمنطلقات عند سواها من عقائد العصر.

فلسفة الإنسان – المجتمع والنظام الاقتصادي الجديد

يصبّ هذا كله في أن ثورة سعاده القومية الاجتماعية الشاملة المتناولة النظام انطلاقاً من الإنسان هي النابعة من فلسفته إلى "الإنسان – المجتمع" القائلة بالفرد مجرد إمكانية وبالمجتمع الحقيقة والفاعلية الدائمة. وهي اذ تتوجه إلى بناء الإنسان على هذه الحقيقة الإنسانية الكبرى، حقيقة المجتمع مؤكدة أن حتى الدماء التي تجري في عروقنا هي للأمة حافزة الإنسان إلى أرقى مستويات الوعي الاجتماعي الذي "يتطلّب من الفرد أن يضيف إلى شعوره بشخصيته شعوره بشخصية جماعته، أمته وأن يزيد على إحساسه بحاجات مجتمعه وأن يجمع إلى فهمه نفسه فهمه نفسية متحده الاجتماعي وأن يربط مصالحه بمصالح قومه وأن يشعر مع ابن مجتمعه ويهتم به ويودّ خيره، كما يودّ الخير لنفسه". ("نشوء الأمم". ص. 14) فهي تعمل في التطبيق العملي، في النظام الجديد، على أن تكون خيرات الأمة للأمة لا للفرد.

"إن من تعاليم هذه النهضة الأساسية أن الأرض للأمة لا للأفراد". ولقد وضع سعاده فلسفة الإنسان – المجتمع وكتب فيها في 1947 – 1949 بعد أن كان وضعها بصورة عملية منذ التأسيس في العقيدة والنظام القوميين الاجتماعيين.

في مجمل العقيدة فالنظام الاقتصادي القومي الاجتماعي يقوم على هذه الاجتماعية التامة التي تؤكد مع سعاده "أن خير هذه البلاد هو لكم لتنتجوه بسواعدكم وتقسموه اقتسام الأخوة القومية الاجتماعية" (خطاب دير الغزال 1948)، و"نهضتنا تريد أن تضع حدا لهذا الاستعباد ولاصحاب الرساميل الفردية الذين يستعبدون بواسطتها الناس". ("المحاضرات العشر"، ص.140) و"اذا كان الرأسمال ضرورياً فهل من الضروري أن يكون في قبضة أفراد رأسماليين ملكاً خاصاً بهم؟". ("شروح في العقيدة"، ص. 188).

و"إن الرأسمال يمكن أن يتحول من حالة إلى حالة ولا يجوز أن يلغى أبداً. وإذا منع التصرف بالرأسمال الفردي فلا يعني ذلك منع الرأسمال بل منع الاستبداد بالرأسمال من قبل فرد ضد مصلحة المجموع". ("المحاضرات العشر"، ص. 138).

و"إن الإنتاج المشترك هو حق عام لا حق خاص". (المصدر نفسه، ص. 136).

و"ما من عمل أو إنتاج في المجتمع إلا وهو عمل أو إنتاج مشترك أو تعاوني". (المصدر نفسه، ص. 137).

وتفسير هذا الأمر أن نظرة سعاده الأساسية هي الإنسان – المجتمع، وضعها في التطبيق أولا، ثم وضعها في النظرية. وأكد نهجه هذا، نهج الفكر الذي يولد من رحم الثورة والممارسة بقوله: "إن الزعيم قد جاء بمقاييس جديدة للأدب والفن وبنظريات جديدة في فلسفة الاجتماع والسياسة. ولكن ظروف نشأة الحزب السوري القومي الاجتماعي لم تمكّنه من الانصراف إلى وضع جميع المقاييس والنظريات في مؤلف أو مؤلفات. ومن هذه المقاييس والنظريات ما وضعه الزعيم بصورة تطبيقية عملية قبل أن يتمكن من وضعها نظرية مبدئية. وكثير من آرائه ونظرياته مبعثر في رسائل خصوصية أو على ورقة طيارة". (شروح في العقيدة"، ص. 183).

من هنا، إن نظامنا الاقتصادي الاجتماعي هو "صورة عملية" عن نظرة الإنسان – المجتمع التي تشمل كل نظرتنا الاجتماعية إلى الفرد والمجتمع في المجالات النفسية – الثقافية – الاقتصادية – الاجتماعية.

هذا الفهم الشمولي للثورة القومية الاجتماعية زاغ عنه الذين انحرفوا عنها وتعلقوا بالمنهجيات الأخرى من دون معاناة ثورية أصلية.

المنحرفون يميناً ومحاولة طمس

المضمون الاجتماعي

واذا كان المنحرفون يساراً، المتمركسون، قد تذرّعوا بغياب هذه التفاصيل والدراسات الاختصاصية ليعمهوا عن المنطلقات الواضحة والقواعد الاصلية والنظرة الشمولية الرائدة، فإن المنحرفين يميناً حاولوا هم أيضاً التذرع بغياب هذه التفاصيل والدراسات الاختصاصية ليطمسوا المنطلقات الواضحة والقواعد الأصلية والنظرة الشمولية الرائدة التي تميّزت بها القومية الاجتماعية.

وقامت دعواهم على ما يلي:

أولاً: تجريد القضية القومية من مضمونها الاجتماعي واعتبارها قضية الصراع في سبيل الاستقلال القومي مسقطين مقولة النظام الجديد بالكلية على أساس السكوت على النظام الاقتصادي وعلاقات الإنتاج باعتبارها شؤوناً مؤجلاً البحث فيها. وذلك خلافاً لكل ما دعا إليه سعاده وأكده من: لا وحدة قومية متينة في ظل اقتصادي سيئ او نظام اجتماعي سيئ واشتمال غاية الحزب على النظام الجديد.

ثانياً: الزعم بأن الاجتماعية كما عناها سعاده هي فلسفة في القيم لا انعكاس لها على الاقتصاد. كأنما الاجتماعية في القيم يمكن أن تقبل بالفردية في الاقتصاد، وكأنما الاجتماعية معزولة في إطار روحي محض عند سعاده صاحب المدرسة المدرحية المؤكدة شمول الاجتماعية الشأنين المادي والنفسي معاً، وخلافاً للنصوص الواضحة للزعيم التي أكدت أن "مذهب الحزب الاجتماعي" هو في نظامه الاقتصادي المنصوص على قواعده في المبدأ الإصلاحي الرابع.

ثالثاً: الزعم بأن القضية القومية هي القضية القومية الاجتماعية باعتبار الاقتصاد جزءاً من الشأن القومي، خلافاً لقول الزعيم الواضح بأنه "فضلاً عن تعيين الأمة وتحديد القومية وإيجاد عقيدة وحدة الأمة" فقد وضع الزعيم "العقيدة الاجتماعية للسوريين القوميين الاجتماعيين". ("شروح في العقيدة"، ص. 17).

ولو كانت العقيدة القومية الاجتماعية تُعنى فقط بالقضية القومية لما كانت المبادئ الإصلاحية وفلسفتها الاجتماعية. إن عملية الاجتزاء هذه مصدرها الأساسي الخلط بين الاقتصاد بالمعنى القومي، بالدورة الاجتماعية الاقتصادية التي تجري على مدى الوطن وتشدّ لبنان إلى الشام إلى العراق إلى الاردن إلى الكويت في وحدة حياة قومية، وبين الاقتصاد بمعنى النظام الجديد. فالأمة، كواقع اجتماعي، كدورة حياتية هي واحدة أياً كان النظام الذي يسودها في مرحلة من تاريخها. ولقد قامت وحدات الأمم الأوروبية، كما ذكرنا، في القرن

التاسع عشر في ظل نظام إقطاعي ملكي أو رأسمالي ليبرالي غير أن الوحدة القومية الاجتماعية التي يرمي إليها الحزب السوري القومي الاجتماعي هي تحقيق الوحدة القومية، أي وحدة الدورة الاجتماعية الاقتصادية، في ظل نظام اقتصادي اجتماعي جديد هو النظام الذي يقوم على فصل الدين عن الدولة "وإلغاء الإقطاع وتنظيم الاقتصاد على أساس الإنتاج وإنصاف العمل وصيانة مصلحة الأمة والدولة" وسائر المبادئ الإصلاحية. هكذا اذن، ليست القضية القومية هي القضية القومية الاجتماعية. أما ادعاء الحرص على وحدانية العقيدة لطمس اختصاصاتها فمسيء إلى العقيدة التي لا تعني شموليتها الوقوع في الضبابية بل تعني أن الشمول لا ينفي الاختصاص بل يؤكده ويفرضه. فالعقيدة القومية الاجتماعية الشاملة تُعنى بالقضية القومية (المبادئ الأساسية) وبالنظام الاجتماعي الاقتصادي الجديد (المبادئ الإصلاحية).

رابعاً: الزعم بأنه في سبيل التناقض الأكبر الذي هو التناقض القومي مع العدو يجب أن تطمس التناقضات الأخرى الاجتماعية، بحيث يعتبر الملك الفلاني أو الإقطاعي ذاك "مواطنين"، بل يعتبر التنظيم الطائفي الرجعي المعروف "مواطنين" تلفُّهم جميعاً "الوحدة القومية" **خلافاً لإصرار سعاده على تفجير كل التناقضات على ساح الصراع القومي الاجتماعي الذي لا يهادن الأعداء الخارجيين ولا الأعداء الداخليين** "نحن في صراع مع الإرادة الأجنبية ومع الإرادات الخصوصية المتحالفة معها، ونأبى أن نهادن الواحدة أو نهادن الأخرى، ونأبى إلا أن نحارب الاثنتين معاً، لأن لنا القدرة على محاربة الفئتين المتحالفتين". (سعاده، "الأول من آذار"، ص. 102).

وعن "الصراع المزدوج" يقول سعاده في نداء الاول من أيار 1949: "كونوا قوميين اجتماعيين وحاربوا في سبيل قضيتكم القومية الاجتماعية التي تحرركم من الإقطاعية والرسمالية الوطنية ومن الإقطاعية والرسمالية الانترنسيونية".

إن كل هذه النماذج على الانحراف يميناً عن العقيدة القومية الاجتماعية إنما تشير إلى فهم مشوش للعقيدة لم يزل يمسك بكل مقولات الفهم الكلاسيكي للشأن القومي والتي تجرّده من مضمونه الاجتماعي ومقولة النظام الجديد، وهو الفهم الذي أسقطه سعاده بالقومية الاجتماعية ومفاهيمها الجديدة كما أسقطه العصر وتجاربه المتجهة إلى سعاده والقومية الاجتماعية. وهذا الفهم أو التفسير يصب في الأخير في موقف مهادن عملياً من الرسماليين والرسمالية المحلية ومن النظام القائم وتصبح القضية القومية عنده بعد إفراغها من مضامينها الاجتماعية موقفاً مبدئياً مسلوخاً عن الواقع.

عصر القومية الاجتماعية
عصر الإنسان الجديد

إن الذين وقعوا في فخ المنهجيات الأخرى أساءوا فهم العقيدة القومية الاجتماعية وثورتها الشاملة وكانوا بالفعل متخلّفين عن الإحاطة بهذه الشمولية الفذة التي تميّزت بها الحركة القومية الاجتماعية ونظرتها الجديدة فقاسوها على عقائد العصر المنقضي.

الذين فهموها فاشية فتعلقوا بها على هذا الأساس، اجتزأوا حقيقتها ومسخوها وقاسوها على معايير أدنى منها فشوّهت تفسيراتهم صورتها. والذين فهموها كذلك فهجّروها إلى عقائد ومنهجيات أخرى انطلاقاً أيضاً من فهمهم الجزئي المبتور لشمولية الثورة القومية الاجتماعية، فهم سواء بسواء. والذين فهموها ليبرالية طردتهم في 1947 لأنهم حاولوا تجاهل فلسفتها الاجتماعية وإخضاعها لفلسفات عصر الفردانية المنقضي. والذين أرادوا الخروج عليها بمركستها في السبعينيات طردتهم لأنهم هم أيضا نظروا إليها من موقع في المسيرة الإنسانية تجاوزته القومية الاجتماعية بشمولها، فحاكموها على أساس الكتب مسقطين تجارب العصر الحية التي أسقطت مقولات الكتب متجهة اليها.

هؤلاء جميعاً لم يفهموا ثورة الثامن من تموز سوى أنها حركة مسلحة في سبيل إسقاط حكم رجعي، ولكنها كانت أكبر وأغنى وأشمل من ذلك كله. كانت منعطفاً يؤشر إلى عصر جديد بعد سقوط عصر القومية الكلاسيكية والرومانسية والفاشية والبورجوازية وسقوط عصر النضال الاجتماعي المقلوع الجذور إلى عصر القومية الاجتماعية عصر الإنسان الجديد الذي لا حدود لآفاقه: "إن قضية من هذا النوع تتكشف عن كل هذه الاهداف الخطيرة تحتاج إلى دراسة منظمة متسلسلة لا تجمعها محاضرة واحدة أو كتاب واحد بل تستمر ويستمر الفكر يتغذّى منها ويتفتح على شؤون العالم مطلقاً، ويظلّ مجتمعنا يجد في هذا التفتح وهذا الاستمرار مراقي إلى ذروة الحياة الجيدة التي تليق بالإنسان الراقي ويليق الإنسان الراقي بها". (سعاده – المحاضرة الثانية – 18 كانون الثاني 1948).

الحزب السوري القومي الاجتماعي

المنطلقات العقدية للأهداف والمواقف

*** الدراسة التي قدّمها الرفيق إنعام رعد باسم الحزب السوري القومي الاجتماعي إلى "النادي الثقافي العربي" ونشرت في كتاب "القوى السياسية في لبنان".**

الحزب السوري القومي الاجتماعي حركة عقائدية ثورية تنطلق في تقييمها للاوضاع والاحداث ورسمها للمواقف من منطلقات عقدية واضحة.
ويمكن تلخيص هذه المنطلقات بالقواعد التالية تيسيراً لفهم "اهداف الحزب وسياسته" وهو الموضوع المطروح من قبل "النادي الثقافي العربي" الكريم على الأحزاب.

المنطلقات العقدية للأهداف والمواقف

1- في مجتمع بلبل عصر الانحطاط مفاهيمه، وأفقده الارتباط بمكامن أصالته، وأضاع هويته، واختلطت التجزئة السياسية والاجتماعية بفوضى المفاهيم القومية، فطمست حقائق مجتمعنا وغابت معالمه الأساسية، وتمزق الوجود الإنساني في أمة مجزأة ممزقة، مستعبدة للارادات الاجنبية قروناً طويلة، كان لا بد من أن القومية ارتكازاً على العلم، وبالتالي كان لا بد أن تكون معرفة ذاتنا هي منطلق كل معرفة أخرى.

من هنا كان لا بد للثورة القومية الاجتماعية من الانطلاق من تساؤل أساسي "من نحن؟" تحدّد في ضوئه هوية الوجود المجتمعي لتنطلق من هذا الوجود في مطامح العصر إلى "كيف نطمح أن نكون؟". وبالتالي أن ترسي الثورة الاجتماعية الشاملة المستهدفة التغيير على تحديد الهوية القومية التي هي المنطلق الثوري الأساسي لنهضة أمة مزقتها الفتوحات الأجنبية وعصر الانحطاط الطويل.

2- وارتكز مفهوم الهوية القومية، في القومية الاجتماعية، على وحدة الحياة في الأرض القومية، وبالتالي على رفض الافكار العنصرية والانتماءات الطائفية والعشائرية والسياسي المنافية لوحدة الحياة على الأرض القومية. وعبر عن هذا الاتجاه العام بقاعدة "ترابط الأمة والوطن" في المبادئ الأساسية.

3- وإن الشأن القومي، تبعاً لذلك، هو الشأن الاجتماعي. فالقومية تنطلق من اجتماعية الإنسان لإدراك قوميته ـ فترسي نظرتها القومية على علم الاجتماع مفترقة بذلك عن النظرات القومية الرومانسية التي قامت على الحدس أو الرغبة أو العاطفة. وتصبح القومية على أساس هذا المفهوم الاجتماعي العلمي تعبيراً عن واقع الإنسانية الحياتي في الظروف الاجتماعية الحالية لا عصبية فارغة من المضامين الإنسانية كما كانت بعض النظرات القومية العنصرية في أوروبا في مطلع القرن العشرين.

4- لقد توصّل سعاده إلى هذا اليقين القومي في تحديد "من نحن؟" مستهدياً منهجاً علمياً يظهر جلياً في كتابه "نشوء الأمم". وفي مؤلفاته الأخرى، فانطلاقاً من علم الاجتماع وانطباقه على أحوال مجتمعنا حدّد نطاق مجتمعنا القومي وهويته. ولو أن هذه المعطيات العلمية انطبقت على مدى أبعد أو أضيق من مجتمعنا القومي كان تحديد للأمة، مداها، ونطاقها، قد تبدّل وفق هذه المعطيات العلمية والاجتماعية.

فالأمة التي هي وحدة الحياة القومية الناشئة من تفاعل جماعة بشرية مع بيئة طبيعية محدّدة تفاعلاً ينتج دورة العمران والحياة الواحدة، هي المقياس القومي الاجتماعي الذي راز به سعاده قوله بالشخصية القومية السورية، ولو أن هذه الشروط العلمية انطبقت على العالم العربي الذي كنّ له قلب سعاده كل حبّ كبير، وكل إرادة صادقة لتحقيق خيره وعزه، وكل اعتزاز بالانتماء الأصيل له، لما كان تخلّف عن القول بالقومية العربية لأمة عربية واحدة من الخليج إلى المحيط.

ولكن انتفاء وحدة البيئة الطبيعية في هذا المدى، الإطار الجغرافي لنشوء وحدة الحياة، جعل سعاده بالمنهج العلمي الذي اعتمد، ينطلق من هذا الواقع الاجتماعي والطبيعي للعالم العربي كمجموعة مجتمعات عربية شقيقة، من دون أن يغفل منذ تأسيسه الحركة القومية الاجتماعية، عن أن عدم قيام مجتمع عربي واحد في العالم العربي لا ينفي من جهة ثانية الروابط التاريخية والمصيرية المشتركة والمصالح النامية التي تحتّم التساند في جبهة عربية نامية تكون سداً منيعاً في وجه الاستعمار "وذات وزن دولي في المسائل السياسية الكبرى"، كما نصت غاية الحزب منذ 1932. وبالتالي التوكيد على انتماء سورية العربي واعتبارها عربية

من هذا العالم العربي، وإن الجبهة العربية هي صيغة يمكن أن تطوّر إلى صيغ اتحادية أمتن في المستقبل تنمو بنمو المجتمعات وروابطها الحياتية.

5- تفترق القومية الاجتماعية كحركة ثورية عن بعض الثوريات الأخرى المعاصرة بأنها تنطلق من القومية إلى الثورية الاجتماعية، انطلاقها في علميتها من الاجتماعية إلى القومية. ويجسّد هذا الترابط بين القومية والاجتماعية بالمبدأ الأساسي القائل بالأمة مجتمعاً واحداً. إن القول بالأمة مجتمعاً واحداً، لا يعني قبول الوضع الراهن السيئ بل هو منطلق الثورة عليه. فالثورة القومية الاجتماعية فجّرت مواقفها الثورية على الصعيد الاجتماعي انطلاقاً من تطبيق مفهومها القومي على المجتمع.

وبهذا كانت الحركة القومية الوحيدة في هذا العصر التي تمثل أقصى اليسار الثوري على الصعيد الاجتماعي من دون الانحراف عن القاعدة القومية إلى الأممية أو أي تفسير خارج الشأن القومي.

إن انبثاق الثورة الاجتماعية عن الهوية القومية يجسّده ارتكاز المبادئ الإصلاحية على المبادئ الأساسية. فعلى أساس الأمة مجتمع واحد رفضت الحالة الانحطاطية الراهنة، وبدل (الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب) و(دين الدولة) في الدساتير والأعراف، وتدخل رجال الدين في السياسة والقضاء القوميين في الكيانات الطائفية، قامت المبادئ الإصلاحية ترفض هذه الحالة وتدعو إلى (فصل الدين عن الدولة) و(إلغاء الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب) و"منع رجال الدين من التدخل في شؤون السياسة والقضاء القوميين". ولكن رفض الحالة الراهنة لا يكفي ما لم يقدّم البديل الايجابي عنها، وهو وحدة الحياة القومية في المجتمع القومي، وهو ما اشتملت عليه المبادئ الأساسية. فالتجزئة الاجتماعية يُقضى عليها بالوحدة القومية الاجتماعية التي يجسدها مبدأ الأمة مجتمع واحد لا حواجز طائفية ولا عنصرية ولا عشائرية تفصل قطاعاته أو تحول دون تكامل دورة حياته.

ان المبادئ الإصلاحية تحقق الإصلاح السياسي، ولكن التغيير الاجتماعي – النفسي، هو أعمق من ذلك، انه بناء الإنسان الجديد من الأساس. هذا على الصعيد النفسي – الاجتماعي أما على الصعيد الاقتصادي – الاجتماعي فالوحدة القومية، خلافاً لمفاهيم اليمين والقومية البورجوازية، لا يمكن أن تقوم في الحركة القومية الاجتماعية على الظلم الاجتماعي.

إن القول بالأمة مجتمعاً واحداً، لا يعني قبول الوضع الراهن السيئ، والرضوخ لحالات الإقطاع وسيطرة الرأسمالي المستغل والتسليم بالظلم اللاحق بالشعب الكادح، بمجموع المنتجين. إن القول بالأمة مجتمعاً واحداً يعني في القومية الاجتماعية عكس ذلك تماماً: إنه يعني تحقيق "النحن" الذي توصلت اليه القومية الاجتماعية في الهوية القومية على صعيد اجتماعي اقتصادي فيحلّ مفهوم "النحن" في العدل الحقوقي الاجتماعي والعدل الحقوقي الاقتصادي محل تناقضات "الأنا" الطبقية والفردية، ويقوم نظام يوزع الثروة على أساس توزيع العمل، ويكون المنتجون فيه هم أسياد الإنتاج محل نظام السيطرة الطبقية للمستغلين والمحتكرين.

القومية الاجتماعية هي رفض ثوري لنظام الطبقات الرأسمالي والإقطاعي. ولهذا فمفهوم "النحن" في الثورة الاجتماعية يصبح مفهوماً دينامياً ثورياً حركياً لا يعتبر ان "النحن" القومية تعني مساواة الظالم بالمظلوم في المجتمع، بل تعني دكّ كل الظلم الاجتماعي وكل أشكاله التي تعرقل الوحدة الاجتماعية القائمة على العدل الاجتماعي الاقتصادي لا على الظلم والتمييز. فالنهضة القومية الاجتماعية التي تنطلق من "النحن" القومية إنما تعمل للوصول إلى "النحن" الاجتماعية، إلى الإنسان المجتمع الذي يحقق ما نطمح أن نكون. وبذلك تتجاوز القومية الاجتماعية المفاهيم القومية العادية السكونية التي تقبل بالصلح الطبقي على أساس الظلم

الاجتماعي، كما تتجاوز الماركسية التي تفهم الثورة القومية معزولة في نطاق النزاع الطبقي عن شمول الوجود المجتمعي. وبذلك تكون القومية الاجتماعية في شمولها هي الحركة الثورية الأكثر تعبيراً عن معاني الثورة القومية وأبعادها الإنسانية ومضامينها الاجتماعية في العصر الحديث.

من هذه المنطلقات نستطيع أن نفهم "أهداف الحزب ومواقفه".

طبيعة المرحلة
مرحلة المجابهة المصيرية
مع الكيان اليهودي الاستعماري الاستيطاني

تعتبر الحركة القومية الاجتماعية أن هذه المرحلة هي مرحلة المجابهة المصيرية مع الكيان اليهودي الاستعماري الاستيطاني. فالخطر الصهيوني على أمتنا كان موجوداً منذ أكثر من أربعين سنة، منذ بدأت المطامع اليهودية في أرضنا. منذ نبّه سعاده العام 1925 لهذا الخطر وحذر منه. ومنذ دعا القوميين الاجتماعيين في المبادئ القومية الاجتماعية إلى دفع الهجرة اليهودية بكل قوتهم. ولكن منذ حزيران 1967 انتقل هذا الخطر المصيري من التهديد الأساسي الكامن بقيام الهجرة اليهودية ثم قيام دولتها إلى المرحلة التنفيذية المباشرة، مرحلة توسع الكيان الاستيطاني العدواني على مدى بيئتنا الطبيعية وتهديده لمجموع شعبنا إما بالتشريد أو الاستعباد أو الإبادة. كما أصبح قسم أوفى من شعبنا يتحسّس هذا الخطر بعد هزيمة حزيران، وأصبحت المواجهة مصيرية لا سيما بعد اندلاع الكفاح المسلح ضده.
من هنا كانت المرحلة هذه مرحلة مجابهة تحديات الخطر الصهيوني. وأصبحت كل المواقف والمواقع تقاس انطلاقاً من هذه الحقيقة.
فانطلاقاً اذن من تحديد هذه المرحلة التي تجتازها أمتنا، بأنها مرحلة مجابهة الخطر اليهودي الاستيطاني الاستعماري، وتحدياته وصده والقضاء عليه، يُصار إلى تقييم المواقع والقوى ويصار إلى تقييم الثورية، انها الثورية الحقيقية الأشمل التي تحتاجها بلادنا في مرحلة مجابهة الخطر المصيري. ذلك ان المقاومة تطرح بمجرد قيامها بالكفاح المسلح ضد العدو مسألة تناقضات المجتمع الداخلية وثغرات الوهن التي لا بد من سدها بالعمل الثوري القومي.

الثورة القومية انطلاقاً من فلسطين: وآفاقها القومية والعربية والدولية

إن الحركة القومية الاجتماعية بتكوينها ونشأتها وحوافزها هي الثورة القومية الشاملة على تحديات الفتوحات الاجنبية التي مزقت بلادنا وعلى عصر انحطاطها الطويل. وان الخطر اليهودي الاستيطاني يمثل في هذه المرحلة وجه الاستعمار الجديد في أوضاعنا وبالتالي فإن مجابهته الثورية تمثل الثورة القومية في دورة جديدة من الصراع القومي.
إن الكفاح المسلح المندلع في الجنوب هو طليعة المجابهة الثورية في بلادنا. ولكن الكفاح المسلح يواجه العدو في الميدان ويطرح بعنف تناقضات أوضاع المجتمع من دون أن يستطيع حلها لأنه بطبيعة توجهه لا يمثل

حركة ثورية مستهدفة إقامة نظام جديد، لا يمثل العقيدة البديل عن أوضاع مجتمعنا الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والثقافية.
ان الثورة القومية الشاملة هي التي تنطلق من تلازم كفاحي، بين الكفاح في الميدان ضد العدو، والكفاح الثوري في المجتمع لرفعه إلى مستوى التحديات المصيرية. وهذا هو عمل الحزب العقائدي الثوري، عمل الحركة الثورية في المجتمع.
إن الحركة الثورية العقائدية القومية، تلتزم بالكفاح المسلح ضد العدو، ولكن عملها في التغيير الاجتماعي الثوري هو الذي يتيح للثورة القومية الشاملة مجالات التحقيق والصمود والانتصار، ذلك أن الكفاح المسلح في الميدان ضد العدو، لا يستطيع أن يستند إلى التناقضات الاجتماعية والسياسية التي تؤدي إلى خنق الكفاح ضد العدو وشله.
في ضوء الحقائق صدرت بيانات رئيس الحزب الدكتور عبد الله سعاده في 8 تموز 1969، وفي 17 تشرين الأول 1969 تعلن القواعد والمواقف التالية:
أ - "حول الثورة الفلسطينية والمجتمع القومي: لا يلتزم بالثورة إلا المجتمع القومي الثوري".
ا- "إن الثورة الفلسطينية ظاهرة بطولة فذة من ظوهر أمتنا العريقة، وكل تلكؤ عن نصرتها تآمر على كرامتنا ومصيرنا. علينا أن نؤمن الشروط المؤاتية لنصرها بعيداً عن المزايدة والارتجال والغوغائية".
2- "العمل الفدائي لا يستطيع أن يكون في فراغ، لا يستطيع أن ينطلق من فراغ، لا يستطيع أن يعمل في فراغ، لا يستطيع أن ينكمش في فلسطينيته وفي كيانيته، لأنه إذ ذاك يعطي الكيانات الحجة الحقوقية لصيانة ذاتها منه ومن مضاعفاته فيحكم العمل الفدائي على نفسه بالانتحار والفناء. إن االعمل الفدائي ملزم بالانتماء إلى واقعه القومي، ملزم بالعمل في إطاره وبواسطته".
3- "الثورة الفلسطينية إن لم تتعهّدها البيئة القومية وتنصرها وتبنيها طليعة لحرب التحرير القومية لا تستطيع أن تحقق النصر المرجوّ".
4- "والفدائيون يتوجهون إلى هذه الكيانات والعقليات بأساليب قد تهدد سلامة ثورتهم ومصيرها. يعلنون انهم لا يريدون التعرض لها ولا لشؤونها الداخلية ولا لأنظمتها. وفي الوقت ذاته يطلبون العمل على أرضها. يطلبون منها أكثر مما تقدر أن تعطي. إن أوضاعها عاجزة عن تحمل أعباء العمل وتبعاته".

-"لا يستطيع تبني العمل الفدائي ويدرك خطورته وأبعاده ويتحمل تبعاته وأخطاره إلا المجتمع الثوري، المجتمع القومي".

"لولا فيتنام الشمالية لما صمد ثوار الجنوب الفيتنامي. لولا إيمان الشمال بأن قضية الجنوب هي قضية قومية لما كان تحمل أطنان الموت تهبط عليه كل يوم من أكبر مارد حربي عرفه التاريخ. لما تحمل التهديد بالاجتياح الأميركي. لو لم تقاتل هانوي في الشمال وتضحّي وتصبر ببطولة مؤمنة خارقة لما كانت تحصد اليوم في باريس أكثر انتصارات الإيمان والبطولة".

ب – حول ما تفترضه المواجهة المصيرية من وحدة ثورية داخلية وجبهة عربية متراصة:

"علينا أن نتخلص نهائياً من بدائيات العقلية المذهبية والعرقية التي تفتت وحدتنا الاجتماعية والقومية والتي هي علة وجود العقلية الكيانية". وبالتالي "خلق العقلية الثورية النظامية العلمانية في كيانات محيطنا القومي

لتطور الثورة الفلسطينية إلى ثورة تحرير قومية قادرة أن تنتزع النصر وأن تفرض ذاتها على الأمم الصديقة والعدوة".

"لقاء جميع القوى والحركات الثورية السورية والعربية في معركة المصير الفاصلة التي تفرض علينا الالتفاف والتساند في القضية المصيرية الجامعة".

"حمل الكيانات السياسية في الهلال الخصيب إلى لقاء جدي لوضع استراتيجية عسكرية منسجمة مع منطق الثورة التحررية وحمل الدول العربية على تأمين مستلزماتها المادية والتقنية".

"الدعوة إلى توحيد العمل الفدائي وعدم بعثرته في تناقضات جانبية. وخضوع كل الوحدات الفدائية لسلطة تقريرية تنسيقية واحدة عليا تلتزم بقراراتها ومخططاتها كل الوحدات الفدائية".

"توضيح أسس التعاون الكامل مع الجمهورية العربية المتحدة التي تشاركنا خط النار في الجنوب وتحمل عبئاً كبيراً من أعباء المعركة".

"توضيح أسس التعاون العربي المتوجب على كل دولة عربية، وذلك نظراً لارتباط مصير الهلال الخصيب بالمصير العربي المشترك والإصرار على واجب الدول العربية البعيدة عن خط النار أن تساهم بسخاء بالمال والعتاد والرجال لبناء القوة العسكرية القادرة على الثبات أمام إسرائيل".

(مقتطفات من بيان رئيس الحزب في 8 تموز 1969).

ج – أما دولياً فالمواجهة مع العدو تقتضي:

"رفض جميع المخططات الاستعمارية الجانبية والمتسترة بشعارات السلم الكاذب ورفض السلم الإسرائيلي والاستعماري رفضاً كلياً".

"إظهار تقديرنا الصادق للعالم الاشتراكي ومساعداته الكبرى في معركتنا مع إسرائيل ومع الاستعمار الغربي وحمله على الإقرار بحقنا القومي الكامل في فلسطين. ورفض التسوية السوفيتية الملتقية مع النظرة الاستعمارية الغربية".

"العمل مع كل حركات التحرير القومي في العالم الثالث للوقوف معنا بجرأة ووضوح في معركتنا القومية ضد إسرائيل المغتصبة. وإعلان موقفنا لهذه الحركات في نضالها التحرري القومي".

(المصدر السابق نفسه: بيان 8 تموز 1969).

"أميركا الحريصة على التقاليد الديمقراطية وحق تقرير المصير للشعوب، لا تتورع من أن تدعي الجمع بين صداقة الدولة المغتصبة إسرائيل وصداقة الشعوب التي تعرّضت لانتهاك حقوقها وسلب أرضها وتشريد أبنائها بفعل القوة التي تصدرها أميركا لها وبفعل الدعم المادي والسياسي والمعنوي الذي تستمر في تقديمه".

"لتعلم أميركا أن ضحايا هذه الصداقة اللدود يستنكفون عن قبولها".

"ان فصل المصالح عن المبادئ الإنسانية تكريس صريح لحق الاستعمار في التدخل والوصاية. كما أنه يلغي احترام تعهدات هذه الدولة. لأن عهودها لا ترتبط إلا بالمصالح المباشرة. والمصالح المباشرة تتبدّل وتتغير - فاذا قضت مصالح أميركا غداً أن تبيع لبنان أو جزءاً منه إلى إسرائيل فإنها تنجز الصفقة من دون رادع مبدئي أو وازع أخلاقي. فماذا يبقى من قيمة الضمانات التي توهّمها البعض في هذا البيان المتناقض".

"إنها تصبح كقيمة (البيان الثلاثي) الشهير الذي كفل سنة 1950 سلامة الدول الإقليمية في المنطقة. فلماذا نقضته إسرائيل في تفوقها الحربي سنة 1967 وراحت الولايات المتحدة الأميركية تدعم إسرائيل في مطالبها التوسعية الجديدة. فتبخرت الضمانات وتناست أميركا عهودها ووعودها".

"السلام في المنطقة لم يخرّبه إلا تدخل الدول الاستعمارية وفي طليعتها أميركا وبريطانيا اللتان خلقتا السرطان الإسرائيلي في جسم الأمة السورية وقلب العالم العربي".

(عن تشريح البيان الأميركي الصادر بقلم الدكتور سعاده في 23 تشرين الأول 1969).

مواجهتنا مع العدو:

1 - على الصعيد الثوري الاجتماعي.

فالمواجهة التي تطرحها الحركة القومية الاجتماعية هي مواجهة عريضة وجذرية وعميقة. تبدأ بالمجتمع، ضرورة تغييره وتثويره، بالقضاء على "بدائيات العقلية المذهبية والعرقية التي تفتت وحدتنا الاجتماعية والقومية، والتي هي علة وجود العقلية الكيانية" ليتسنى بقيام "العقلية الثورية النظامية العلمانية في كيانات محيطنا القومي" تطوير "الثورة الفلسطينية إلى ثورة قومية قادرة أن تنتزع النصر" بعد احتضان المجتمع الثوري القومي لها في كل البيئة.

هنا يُطرح موضوع خطير: ما هي الحركة الثورية انطلاقاً من طبيعة المرحلة المصيرية التي تجتازها؟ ما هي ملامحها وما هي معالمها؟

أيمكن أن يكونوا ثوريين الذين يقبلون بالحل السلمي؟

أيمكن أن يكونوا ثوريين الذين يعتبرون أن الأممية لا القومية هي الحل لمشاكلنا؟

ثم أيمكن أن يكونوا ثوريين بالمعنى الثوري الشامل الذين لا يستطيعون الخروج من شرنقة العنصرية أو الطائفية؟ أو الذين تنفلش أفكارهم فلا يحققون وحدة البيئة الطبيعية التي تفرضها الاستراتيجية في حرب المصير لمواجهة الخطر الصهيوني؟

هنا، في ضوء هذا كله، تظهر ثورية الحركة القومية الاجتماعية مرتبطة ارتباطاً عضوياً بتحديات المصير ومعركة المصير. ولكن الحركة القومية الاجتماعية، اذ تدرك شمولية ثوريتها لا تنغلق على كل ثوري في

مجتمعنا مهما كانت ثوريته جزئية، بل تدعو إلى لقاء جميع الثوريين على مطلب المواجهة المصيرية ضد العدو.

2 – على صعيد الجبهة العربية ومفهومها المتطور: الوحدات الطبيعية والاتحادية العربية.

وعلى الصعيد العربي تفرض المواجهة تمتين الجبهة العربية بدءاً من علاقات التحالف والتعاون مع الجمهورية العربية المتحدة التي تشاركنا خط النار في الجنوب وتحمل أعباء كبرى في المواجهة مع العدو.

إن التوكيد في بيان 8 تموز كان على مدى ارتباط الهلال الخصيب والتزاماته العربية وبالتالي على أهمية الرابطة العربية التي يمكن أن تنمو بمقدرة المجتمعات العربية و"بفعل نواميس الحياة" نحو (التطور الاتحادي أو الوحدوي الذي هو منطق سير التاريخ المعاصر وناموسه الطبيعي) انطلاقاً من تفاعل المجتمعات العربية ونمو روابطها.

وفي هذا المجال لا بد من التنويه بالحقائق الأساسية التالية التي تندرج فيها نظرة الحركة القومية الاجتماعية إلى التساند العربي:

أولاً – ان غاية الحركة منذ تأسيسها قد تضمّنت العمل من أجل الجبهة العربية. وقد اقترن السعي لإنشاء الجبهة العربية بقصد (الوقوف سداً منيعاً في وجه الاستعمار) استشرافاً منذ 1932 للتصادم بين حركات التحرر القومي والإمبريالية العالمية. كما أن هذا الهدف أعلن في وقت كان العالم العربي يرزح كله تحت وطأة النير الأجنبي، وكان تفتيت الروابط العربية سياسة استعمارية معروفة.

فمنذ نشوء الحركة أعلنت انتماءها العربي وألزمت الأمة السورية بالعمل للجبهة العربية. وأن الحركة القومية الاجتماعية، في هذا المجال قد ميّزت وتميّز دوماً بين المساندة العربية وهي التي تعنيها بالجبهة العربية وبين المشاعية أو الوصاية والتي مارستها الجامعة العربية على المسألة الفلسطينية فأخّرت الكفاح المسلح عشرين سنة.

ثانياً: إن الحركة القومية الاجتماعية لا ترفض مبدأ الوحدة ولا تختلف مع دعاته إلا على المنهج والأسلوب. قال سعاده: (إننا لا نقول بالوحدة العربية بل نعمل لها). ليس خلافنا اذن مع الذين يقولون بالوحدة العربية على هذه الوحدة بل خلافنا على الفكر والمناهج الرومانسية لتحقيق الوحدة. إن القومية الاجتماعية تقول بأن الوحدة العربية أو أي مطلب اتحادي في العالم العربي لا يمكن بلوغه إلا على أساس الانطلاق من واقع المجتمعات العربية، ذلك ان تجاهل هذا الواقع لن يؤدي سوى إلى الفشل والنكسات. ولقد تأكد حتى الآن أن أسلوب تجاهل الواقع الاجتماعي والطبيعي والتلهي عن الوحدة الأقرب بالوحدة الأبعد، لم تكن له من نتيجة سوى تكريس الانفصالية والانعزالية وإبقاء أوضاع التجزئة على حالها.

إن الانطلاق من توحيد البيئات الطبيعية هو طريق بلوغ الاتحاد العربي ولا طريق سواه. إن الثورة الجزائرية ترفع شعار وحدة المغرب العربي وتعتبرها طريق الوحدة العربية. وإننا ندعو إلى التزام هذا الخط في الهلال الخصيب فتكون وحدته لا سيما في الظروف المصيرية الراهنة هي طريق الوحدة العربية. بدل أن يظنّ أن

تحقيق الوحدة الطبيعية يعرقل قيام الوحدة العربية الأبعد، فتكون النتيجة لا تحقيق الوحدة الأبعد والامتناع من جهة ثانية عن تحقيق الوحدة الأقرب: تكون النتيجة الالتزام بما خلفه الاستعمار من تجزئة تحت شعارات وحدوية عريضة يستحيل تحقيقها.

ان الوحدة العربية تأتي نتيجة نمو المجتمعات العربية، نمو ترابطها وشراكتها وتواصل عمرانها أم العمل لتحقيقها من دون توفر الشروط الموضوعية لها فيؤدي إلى الدوران على غير محور طبيعي، كما جرى حتى الآن.

إن شعوب أوروبا الغربية من دون أن تخوض جدلاً كلامياً حول الوحدة، دخلت مرحلة اتحادية في ما بينها انطلاقاً من السوق الأوروبية المشتركة وبلوغاً إلى برلمان أوروبي عتيد، وذلك بفعل ترابط دورات العمران وامتداد تفاعل الحياة بين وجودات مجتمعية لها شخصياتها القومية وعلى أساس أسرة إقليمية حضارية مشتركة نامية متطورة. ولم يكن ممكناً قبل قرن أن تحقق الوحدات الالمانية والايطالية والفرنسية الطبيعية البحث في اتحاد أوروبي شامل.

ان الروابط بين المجتمعات العربية أشد وأقوى على الصعيد التراثي الروحي من تلك التي تشد المجتمعات الأوروبية ولكن التخلف عن تحقيق الوحدة سببه الافتقار إلى سلوك الطريق العلمي والعملي الوحيد، الانطلاق من تواصل العمران لا من تواصل المشاعر.

ثالثا: ان المرحلة المصيرية الراهنة، مرحلة المواجهة مع إسرائيل، تفرض وحدة بيئتنا الطبيعية.

إن أكبر عون لمصر التي تشاركنا خط النار في الجنوب أن نكون قوة نحن في الشمال.

وإن عجز الكيانات السورية عن أن تكون ثقلاً عسكرياً في معركة حزيران سببه التجزئة. لذلك يفترض التكامل الاستراتيجي تحقيق قدر من وحدتنا الطبيعية يتيح لجبهتنا أن تكون سنداً قوياً للجبهة الجنوبية التي تتمركز عليها مصر وتتحمل تبعاتها الكبرى.

إن المحك لصوابية الاتجاهات الوحدوية في هذه المرحلة، هو محكّ المعركة، محكّ الحرب المصيرية ضد إسرائيل.

وإن أية وحدة تقوم في الهلال الخصيب مفروض عليها بحكم شراكة المصير أن ترتبط بمصر في تحالف عسكري – سياسي – اقتصادي.

المواجهة مع إسرائيل وحلفائها دولياً:

وهي مواجهة تفرض تعيين حلفاء إسرائيل على الصعيد الدولي ورفض مواقف السلم الإسرائيلي وكل الصيغ والتسويات والضمانات الخادعة التي تدعمها أميركا.

إن صورة الكفاح القومي ضد إسرائيل والاستعمار المساند لها، تتخطى الصورتين النقيضتين: صورة أن إسرائيل خطر قائم بذاته أو صورة أن إسرائيل مجرد اداة استعمارية عند الإمبريالية العالمية.

ان العلاقة بين إسرائيل والإمبريالية علاقة إحالة متبادلة. "فإسرائيل قاعدة استعمارية ولكنها ليست مجرد ذلك بل هي إلى جانب كونها قاعدة استعمارية للغرب، فهي تمثل حلم الصهيونية العالمية التي سخرت بدورها وتسخر الغرب لسياستها وأهدافها. فهي قاعدة للغرب بقدر ما أصبح الغرب قاعدة لنشاطها ومسخّراً لمصالحها، وهكذا نشأت هذه العلاقة السببية منذ البداية، منذ تصريح بلفور الشهير: فقد ولد ذلك التصريح من تزاوج المصالح البريطانية الإمبريالية الاستعمارية المعتبِرة أن وجود اليهود في فلسطين يكون رديفاً لوجودها في قناة السويس مع المصالح الصهيونية، في جرّ بريطانيا إلى تأييد أحلامها بالاستيلاء على فلسطين. والعلاقة السببية نفسها تتكرر اليوم مع أميركا".

("فلسطين أبعد من الحل السياسي والحل العسكري". نيسان 1968 – قيس الجردي)

فمواجهة إسرائيل بالضرورة مضطرة إلى مواجهة الإمبريالية التي تدعمها، ولكن بإدراك كلي أن إسرائيل ليست مجرد قاعدة لتلك الإمبريالية، كبقية القواعد، بل إن لها وجودها العدواني الذاتي الذي يسخر أطماع الإمبريالية لبلوغ أطماعه بالذات.

وهذا ما يعلنه تشريح البيان الأميركي للدكتور سعاده: "ان أميركا الدولة العملاق، التي خلقت إسرائيل والتي تتعهّدها وتحمي جرائمها الوقحة هي في الوقت ذاته ضحية إسرائيل والصهيونية المتحكمة بالاقتصاد الأميركي وبالسياسة الأميركية".

والثورة القومية تنفتح على المعسكر الاشتراكي، لا سيما الاتحاد السوفياتي، وتقدّر مساعداته للدول العربية وتميز مواقفه عن مواقف الإمبريالية الغربية المتهافتة على دعم إسرائيل، وتعمل على مد علاقات الود والصداقة والتقدير معه، ولكنها لا تستطيع إلا رفض مشروع التسوية السوفياتية الذي يحصر العدوان بعدوان حزيران، والذي يدعو شعبنا إلى التعايش مع العدو وضمان حدوده وأمنه، كما أنها تدعو الدولة الاشتراكية إلى تصحيح موقف الخطأ المستمر الذي تورطت به دولة الاتحاد السوفياتي منذ 1947 بالاعتراف بالكيان الإسرائيلي العدواني الاستيطاني.

أما العالم الثالث فهو عالم الثورة القومية، ولذلك فثورتنا مدعوة إلى العمل على كسب حركات التحرر القومي فيه إلى جانب ثورتنا القومية في الجنوب.

فالعالم الثالث الذي يخوض الثورة القومية ضد الاستعمار، كم قصرت دولنا عن ربحه لحقنا القومي في فلسطين، وكم قصرت أحزابنا الثورية التي تعتبر نفسها تمثل اليسار في أمتنا وفي العالم العربي عن إيضاح هذا الترابط المبدئي بين النضال القومي لتحرير فلسطين وبين الثورة القومية في العالم الثالث كله!؟ لولا هذا التقصير لما كانت كوبا مثلاً وهي الثورية القصوى في أميركا اللاتينية تعترف بإسرائيل. لولا هذا التقصير لما كانت إسرائيل استطاعت أن تقيم أطيب العلاقات وأوثقها مع شعوب أفريقية وآسيوية بعضها يشكل طليعة ثورية. فنظام كوامي نكروما الذي كان يمثل ثورية يسارية في أفريقيا الغربية والذي جهر بماركسيته واشتراكيته والذي كان يساند الثورات في أفريقيا ويتجاوب معها والذي وقف في وجه الاستعمار الغربي مواقف مشرفة، والذي كان صديقاً لبعض الدول العربية التقدمية، كان رغم ذلك كله واقعاً في براثن الاخطبوط الصهيوني، فيدرب جيشه مدربون من إسرائيل وتقيم معه إسرائيل أوثق العلاقات التجارية والاقتصادية.

الشأن القومي ووحدتنا الطبيعية

طرحت نكبة حزيران بصورة قوية وحادة قضية وحدتنا الطبيعية القومية وأظهرت صوابية نظرة الحركة القومية الاجتماعية إلى هذا الشأن.

ولقد أدركت الأنظمة في الوطن والعالم العربي هذه الوحدة بعد هزيمة حزيران فنادت بقيام الجبهة الشرقية، من دون أن تقوى على تحقيقها حتى الآن بسبب تناقضاتها الكيانية.

وتوصلت المقاومة عملياً، بعد انطلاقها من إطار فلسطيني، إلى تلمس هذه الوحدة الاستراتيجية وضرورة التمركز عليها.

كما أن العدو كان قد أدرك معالمها، عندما ضلع باتفاقية سايكس – بيكو بتجزئتها ليصار له إقامة كيانه العدواني في فلسطين بعد سلخها عن مداها الطبيعي، كما يذكر وايزمن ذلك في مذكراته، ثم عندما نادى بعد قيام دولته في فلسطين، باغتصاب البيئة الطبيعية المحيطة ملزماً نفسه بالشعار الذي رفعه على مبنى برلمانه: "حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل". ذلك لأن العدو أدرك أيضاً ولو من زاوية الاغتصاب والعدوان، أن فلسطين جزء لا يتجزأ من وحدة استراتيجية في الهلال الخصيب.

ولقد أدرك المؤتمر السوري العام 1919 – 1920 رغم تخلّف مفاهيمه، ورغم كونه قد تشكل من فئات أمتنا، التي تمثل التزعم التقليدي، ولا تمثل الثورية المبدئية، إلا أنه كان على قدر كبير من حسن الحس القومي بأن أعلن في قراراته رفضه للمطامع اليهودية في سورية الجنوبية وشدد على ضرورة بقاء سورية الجنوبية (التعبير للمؤتمر السوري في وصف فلسطين) ضمن وحدة سورية الطبيعية.

إن تجزئة وحدتنا الطبيعية كانت هي المعبر لقيام المطامع اليهودية وتحقيقها، فالعدو مدرك أن حربه تمتد على هذا المدى، ويدرك أيضاً أن فرقة القوى وانقسامها في هذه البيئة هي فرصته الوحيدة للاستمرار والانتصار، وأن وحدتها وتلاقيها هي نهايته المحتومة.

وبينما يدرك العدو ذلك تقوم من جانبنا التناقضات الكيانية التي لا تتيح لأي قدر من التوحيد في وجه العدو.

ان توزع قوى سورية الطبيعية في أوضاع التجزئة وتناقضاتها كان في طليعة العوامل على صعيد التطبيق الحربي الاستراتيجي التي أدّت إلى نكبة حزيران. وإن توحيد القوى لا يمكن أن يكون على أساس التناقضات الكيانية أو بالعقلية الكيانية حتى تلك التي ترفع الشعارات الوحدوية العريضة وتنطلق من مصالح كيانية جزئية.

فاذا كنا مثلاً نرفض الانعزالية فإننا لسنا مع تغليف الوحدة القومية بمضمون الطغيان أو التوسع الكياني.

فالكيانات التي ترفع شعارات الوحدوية وتعجز عن تنسيق روابط الحياة ما بينها ثم تنادي بالوحدات إلا بعد الالتهاء عن الوحدات الأقرب لا يمكن أن تكون جاذباً وحدوياً او مثالاً يُحتذى.

وإن الكيان الذي ينصّ في دستوره على دين رئيس الدولة أو دين الدولة ويدّعي التقدمية والثورية لا يمكن بثوريته المشوبة الناقصة أن يكون للذين طلبوا الانعزال لممارسة حرياتهم السياسية والدينية، جاذبية للوحدة. أن أكثر ما يسيء للقضية القومية هو هذه التناقضات لمصالح كيانية وتحت شعارات وحدوية.

إن الكيان الذي يريد أن يكون في مستوى القضية القومية هو الذي يستطيع أن يكون نموذجاً لكل ما يتخطى التناقضات الاجتماعية والسياسية التي مزقت وحدتنا القومية. انه الذي يستطيع أن يكون علمانياً تقدمياً ثورياً يقدم مصلحة الأمة الشاملة على مصالحه الكيانية الجزئية، ويحقق وحدة الشعب كله في ظل نظام يقوم على فصل الدين عن الدولة، ويقدّم المواطنية على الانتماءات الطائفية والعنصرية، ويقيم قاعدة لتعامله مع سائر الكيانات على إدراك الوحدة القومية التي تعلو على كل التناقضات الكيانية والتي يستهدفها كل عمل قومي.

هو كيان ينظر إلى اللبنانيين والشاميين والعراقيين والأردنيين والفلسطينيين والكويتيين بالتساوي ويعتبر نفسه لجميعهم من دون تفريق.

كما أنه ينظر إلى المسيحيين والمحمديين والعلويين والدروز على أنهم مواطنون أولاً وقبل كل شيء.

وينظر إلى الأكراد والآشوريين والسريان نظرة المواطنة المرتبطة بوحدة الحياة والوطن، وينظر إلى مسؤولياته القومية في معركة فلسطين فيقيم كل علاقة على أساسها وبهدي متطلباتها.

هذا هو الكيان القومي الاجتماعي الذي ناضلنا ونناضل لنقيمه على أرض الوطن، والذي تقصر كياناتنا القائمة حتى التي ترفع شعارات الوحدة والتحرير على الانطلاق من قواعده القومية الشاملة، فالكيان القومي أو الذي يعمل للقضية القومية هو الذي تنتصر فيه هذه المفاهيم القومية الاجتماعية ويشع بها على الكيانات الأخرى.

ومتى سادت هذه المفاهيم بين كياناتنا فلا يعني ذلك بالضرورة ملاشاتها تحقيقاً للوحدة بل يمكن التدرج بعلاقات التنسيق الدفاعي – الاقتصادي – الثقافي الذي دعا له الحزب السوري القومي الاجتماعي منذ مطلع الستينيات (راجع بيان رئيسه في 16 تشرين الثاني 1961) حتى يتحقق التكامل القومي.

الوحدة القومية

ارتكازها على الوحدة الاجتماعية

لقد بينا في المنطلقات العقدية الارتباط العضوي بين الشأن القومي والشأن الاجتماعي. وكما أن الثورة الاجتماعية ترتكز على الهوية القومية فإن تحقيق الوحدة القومية مرتبط بتحقيق مفاهيم الوحدة الاجتماعية، أمة واحدة – مجتمع واحد.

والكيان الذي يحمل رسالة الوحدة مفروض أن يكون الكيان النموذج لتحقيق مفاهيم الوحدة الاجتماعية التي تنقض تفكير الأقلية والأكثرية الطائفية أو العنصرية، وتقيم المواطنة العلمانية أساساً لكل علاقة المواطن بالوطن.

فإذا كانت الاتجاهات العنصرية الطائفية هي أخطر ما يهدد أمتنا في هذا المفترق الخطير من مسيرة نضالنا في سبيل مصيرنا القومي، أولاً لجهة تفسيخ مجتمعنا وشلّ قواه الداخلية وبعثرة جهوده، وتجزئة ولائه، وثانياً لجهة التذرع الاستعماري الصهيوني بفكرة الاوطان الطائفية العنصرية تقام في أمتنا تبريراً مجرماً للعدوان المغتصب لجزء من أرضنا، كأنما هذا النمط من التنظيم السياسي المشوّه هو القاعدة في أرضنا، اذن لطالما أن الاتجاهات العنصرية الطائفية، لا سيما في مرحلة المواجهة المصيرية مع إسرائيل هي أخطر ما يتهدّد أمتنا في الداخل، فإن مقياس الثورية هو مقدار ما تحقق الحركة الثورية من نجاح في حل مشكلة التجزئة الاجتماعية أو مقدار فشلها في التحقيق.

ومهما قيل عن حق، في أن فكرة الأوطان الطائفية العنصرية، كفكرة "الوطن القومي المسيحي" في لبنان، و"الوطن القومي الكردي" في العراق، وغيرهما من مشاريع الأوطان الطائفية العنصرية التي تطرح على شعبنا، هي أفكار تطهى في مطبخ المخططات الاجنبية ولمصالح استعمارية وصهيونية، فان الحقيقة التي لا بد من التسليم بها هي ان هذه الافكار ما كانت لتلقى قبولاً عند بعض الفئات من شعبنا لولا التجزئة الاجتماعية النفسية التي خلفها عصر الانحطاط، ولولا عجز الأفكار والأنظمة السائدة عن حلها جذرياً وثورياً.

إن الحلول – التسوية، سواء الحل - التسوية الطائفية في لبنان الذي قدّمته المدرسة السياسية التقليدية وعرف بالميثاق الوطني والذي كرّس الانقسام الطائفي، أو الحل - التسوية العنصرية لجهة "تعايش القوميات" في جزء من الوطن من دون لحمة بالحياة المشتركة على الأرض الواحدة، هما حلان يقصران عن تحقيق الوحدة المجتمعية السليمة.

إن الحركة القومية الاجتماعية التي اعتبرت وحدة الحياة على الأرض القومية، لا الأصول الدموية ولا الانتماءات الدينية، هي مرتكز الهوية القومية تمكّنت من أن تقدم مفهوماً للمواطنة علماً وعلمانياً يحقق الوحدة المجتمعية الشاملة على أرض الوطن.

وأنه انطلاقاً من هذا المفهوم القومي السليم تحققت في الحركة السورية القومية الاجتماعية وحدها، الوحدة الاجتماعية التي لاشت الطائفية وحدودها، والعنصرية واصولها، والطبقية وهرمها. ووحدها الحركة القومية الاجتماعية امتدت في شعبنا كله تتهاوى أمام مفاهيمها القومية الاجتماعية الموحدة الحواجز والحدود، فإذا هي حركة الشعب في كل الوطن، وإذا في مجموعها المحمديون والمسيحيون والدروز والعلويون، والآشوريون والاكراد والسريان، والذين يعود نسبهم إلى قريش أو قحطان أو عدنان، واذا في صفوفها الكادح والعامل، والفلاح والمزارع، والطبيب والمهندس والطالب والموظف وصاحب الحانوت والمتجر، قد انصهروا جميعاً في عقيدتها ونظامها ووحدة اتجاهها قوة ثورية طليعية تكافح من أجل التغيير الجذري الشامل الذي لا يهاود الطبقية ولا الطائفية ولا العنصرية.

إن انتصار المفاهيم القومية الاجتماعية في المجتمع هي التي تقلب حياته من التجزئة إلى الوحدة، ومن التفكك إلى التماسك، ومن الشتات إلى الالتفاف على المحور الطبيعي.

إن التغيير الاقتصادي هام ضروري، ولكنه لا يخلق وحده الإنسان الجديد. هذا ما كشفت عنه تجربة حزيران المرة. إن الاشتراكية يجب أن تتحقق في مناخ تغيير اجتماعي شامل يبدأ بالمفاهيم والعقلية والتقاليد والنفسية. إن تحديث المجتمع ليس تحديثاً في الاشكال ولا في البنى الاجتماعية أو السياسية، على اهمية هذا التغيير، بل هو في تثوير النظرة إلى الإنسان، في دك حواجز التقاليد المنافية لوحدة المجتمع، لوحدة حياته وشعبه ومصيره. إن التجزئة الاجتماعية لها مظهر اقتصادي هو الطبقية المستغلة ولكن لها كذلك مظاهر نفسية خطيرة، في التناقضات الطائفية والعنصرية.

إن الثورة الاجتماعية هي التي تستوعب التغيير بشمولية الشأنين المادي والنفسي.

التناقضات الحالية والنظام البديل

إن لبنان رغم ما تحمله المدرسة السياسية العتيقة التي تولت حكمه منذ خمسين سنة، والتي أعطت له بتسوياتها وأوضاعها ونظرتها الفئوية والجزئية، طابعاً متخلفاً عن العصر، هو المؤهل لأداء دور كبير في البيئة بفضل كونه يشهد أعنف صراع بين القوى التقليدية الهرمة والقوى الجذرية الثورية العاملة على خلق الإنسان الجديد يتحصّن بلبنان ويحوّله إلى منطلق لأخطر ثورة جذرية في العالم العربي. وبهذا يجد لبنان معناه الحقيقي وموجب وجوده واستمراره.

ان المدرسة السياسية العتيقة قد قامت على أساس الحل التقليدي بدءاً من المتصرفية مروراً بلبنان الكبير، إلى ميثاق 1943 وكل صيغه وتسوياته. ولكن المشكلة الطائفية استمرت هي الأساس لكل هذه الحلول التقليدية. وإن ما نشهده اليوم في 1969 هو سقوط النسخة المنقحة للميثاق الوطني، هو سقوط محاولة ترميم الميثاق بعد 1958 التي عرفت بالوحدة الوطنية.

إن الحل الطائفي التقليدي وكل مصاحباته الإقطاعية والرأسمالية، نظام الاقتصاد الحر المتفلت، واقتصاد الخدمات، وحكم البيوتات التقليدية، وحلول التسويات وانعدام التخطيط، وبالتالي إحلال المعالجات الجزئية المرتجلة محل الأسلوب العلمي، إن هذه كلها قد سقطت حين واجه الحكم كلما قامت أزمة كبرى، انشطاراً طائفياً يلوّن المواقف العامة.

ومنذ 1936 مروراً بـ 1943 وحتى 1969 يصار إلى تهدئة الفتنة أو الانقسام بتدخل "العقلاء" ولا يصار إلى إلغاء وجود الانقسام والفرقة باستئصال أسبابها.

إن الحل الطائفي التقليدي قد أعلن طابق إفلاسه وسقطت تسوياته في المحك العملي.

إن المفاوضات الطائفية دليل دامغ على حلول التناقضات الطائفية محل الإرادة الوطنية الواحدة. وإن الدولة التي تقوم على مقياسين للوطنية مختلفين على أساس طائفي، لا عقدي ولا سياسي، فتحتاج إلى توافق ممثلي الجبهتين حتى تتلمس الحل، هي دولة مفتقرة إلى الارادة الشعبية السليمة.

لقد كان العجز عن إيجاد الإرادة الشعبية الموحّدة في لبنان، وعن وعي الترابط المصيري بالبيئة هما المعلمان اللذان اتصف بهما عقم حلول المدرسة السياسية التقليدية. فبدل أن نعي قوميتنا من خلال طائفيات متناقضة كما هو الحال في لبنان اليوم، تطرح الحركة القومية الاجتماعية، وتجربة التحقيق في صفوفها أبلغ دليل، الانطلاق من الوعي القومي طريقاً لتحقيق وحدة الإرادة الشعبية والقضاء على الطائفية.

تطرح مسألة ارتباط التغيير الاجتماعي بالهوية القومية.

إن تسوية الميثاق الطائفي حاولت أن تطرح صيغة لبنان "ذو وجه عربي" بديلاً عن تطلعات فئة من اللبنانيين إلى لبنان الجزيرة المرتبطة بالغربي، وبديلاً عن تطلعات وحدوية لفئة أخرى من اللبنانيين.

ولكن هل نجحت صيغة التسوية؟

إن قسماً من اللبنانيين لم يزل يمارس وجدانياً ونفسياً تطلعه إلى الغرب وانسلاخه عن البيئة المحيطة متجاهلاً ارتباط المصير الواحد، متخطياً الواقع الجغرافي والاقتصادي والاجتماعي والاستراتيجي الذي يشده إلى بيئته، متوهماً أن الضمانات الأجنبية تكفيه، كأنما نجحت هذه الضمانات ولو مرة واحدة في إنقاذ شعب لم يعتمد على نفسه في عراك المصير أو في صد إرادة شعب مصمّم. فلا هي صانت القدس من عدوان الصهاينة، ولا هي حفظت الأنظمة الموالية للغرب في انتفاضات شعوبها، وقد وقفت القاعدة الأميركية والقواعد البريطانية عاجزة إزاء انقلاب ليبيا، كما خيّبت إسرائيل الأمم المتحدة وقراراتها الاجتماعية بشجب احتلالها القدس. إن الضمانات الدولية أعجز عن صدّ الأخطار، كما أنها أعجز عن صدّ ارادة الشعوب. إن الحصن الحقيقي للشعب هو إرادته على الصراع المتحققة بوحدة اتجاهه ووعيه القومي. إن المدرسة السياسية العتيقة تعمد إلى حشر اللبنانيين بين خيارين:

اما حالة الرفاه والاسترخاء التي عللتهم بها أو حالة الحرب وتحمل المسؤوليات. كأنما يُراد إقامة دكان ومتجر لا وطن ولا دولة!

إن ثمن الحرية والكرامة والشرف القومي أغلى من كل عرض الدنيا، فضلاً عن أن العدو المحتل لأرض فلسطين له استراتيجية متوسعة الزم نفسه بها في شعارات رفعها على مؤسساته الرسمية، وأن الليطاني مستهدف من مطامع العدو منذ 1919 وقبل أن يكون في الجنوب فدائيون بنصف قرن.

وأن العدو يشكل فضلاً عن هذا كله، على لبنان بالذات، على المتجر والدكان والمرفأ فيه، عدا خطر التوسع والاحتلال، خطر الاختناق بأخطبوطه الاقتصادي الذي يسلب اللبنانيين كل مواردهم حتى السياحية، كما أن الرأسمال الصهيوني بسيطرته على المرافق الأفريقية يضرب مصالح الجاليات اللبنانية.

إن هذه المدارس التي تعلل النفوس عن مواجهة العدو بعدم التأهب لعراكه، ماذا فعلت طوال عشرين سنة وأكثر، غير تخدير اللبنانيين وزرع مركبات النقص وعقد الضعف في نفوس قوم ترعرعوا في الجبال القاسية

والطبيعة الأنوف، فحاولت هذه المدرسة المفلسة، مسخ هبات الطبيعة في اللبنانيين لتمسخهم شعب مرافئ ودكاكين يتلمس السلامة الشخصية والمادية على حساب العز القومي؟

إن الشعب اللبناني الأبي يرفض هذا المصير!

إنه يطالب بقيام أوضاع سياسية – اجتماعية – اقتصادية في مستوى مطامحه. إنه يطالب بنظام جديد قادر على رص الصفوف، وحشد الطاقات وتعبئة الموارد والرجال والتكامل مع البيئة في وحدة المصير.

إننا في المجابهة مع إسرائيل مدعوون إلى وعي المدى البشري والطبيعي على صعيدي الوطن والعالم العربي لقوتي المجابهة والمساندة.

وإذا كانت صيغة "لبنان ذو وجه عربي" قد فشلت في كسب الفئة المرتبطة طائفياً ووجدانياً بالغرب، فإنها فشلت عملياً في تحقيق الغرض الأساسي منها، إذ دللت التجارب على أن هذه الصيغة عجزت عن تأمين ارتباط لبنان المصيري والقومي ببيئته.

ففي مطلع عهد الاستقلال انضمّ لبنان إلى الجامعة العربية، ولكنه سلك بدءاً من اتفاقية النقد سلوكاً أدى إلى القطيعة الاقتصادية مع الشام. تلك القطيعة التي سعت إلى تحقيقها البيوتات المالية الكبرى في بيروت بعامل ارتباطها بالرأسمال الأجنبي، والشركة الخماسية الاحتكارية في الشام.

إن لبنان ذو الوجه العربي لم يعِ أن مقياس عروبته عملياً هو مقدار وعيه لارتباطه ببيئته. فدخول الجامعة العربية من جهة، وإعلان القطيعة مع الشام من جهة أخرى عملان متناقضان استطاع لبنان التسوية والميثاق أن يحققهما متذرعاً بعروبة المجاملات والديبلوماسية لتقطيع الصلات الحية مع البيئة.

هذا لا يعفي طبعاً أوضاع الحكم المتعفنة في الشام في ذلك التاريخ من مسؤولية القطيعة.

إن صيغة "لبنان ذو وجه عربي" من دون الارتكاز على الارتباط المصيري بالبيئة، بل وعلى أساس الاكتفاء بهذه الصيغة وجعلها أحياناً، وكأنها نقيض الارتباط بالبيئة كان اختباراً فاشلاً للعروبة وللبنان بهذا المفهوم الجزئي التقليدي المطروح في الميثاق الطائفي. إن العروبة نفهمها تكاملاً مع البيئة الطبيعية العربية المحيطة في الهلال الخصيب، ووعياً لعروبة هذه البيئة وانتمائها للعالم العربي الكبير.

أما العروبة على أساس أن يحل الانتماء الشكلي للجامعة العربية محل علاقات الطبيعة والمصير، فانعزالية مقنعة، كما برهنت التجارب والواقع.

فلبنان الرسمي يتمسك "بالإجماع العربي" و"بالقمة العربية" و"بالجامعة العربية" من ضمن صيغة "الوجه العربي" من دون الالتزام بالمقاومة الفلسطينية ولا الانضمام للجبهة الشرقية.

إن الكيانات السورية الأخرى، لا تستطيع أن تمثل جاذباً قومياً للوحدة أو التعاون، لأنها كما سبق القول، بأوضاعها وسياساتها ورغم ادعاء بعضها شعارات الوحدة، تسلك سلوكاً كيانياً ضيقاً، منفراً اللبنانيين من بيئتهم الطبيعية وعاملاً على إبعادهم عن قضية المصير القومي.

إن الوحدة الطبيعية القومية ليست وحدة طغيان كيان على كيان آخر، بل هي وحدة مجتمعية تتمّ في ظل مفاهيم جديدة.

إن المدعو إلى حمل رسالة المصير القومي على أساس المفاهيم الجديدة للبيئة ليست هذه الكيانات المقصرة عن سوية الكيان القومي الثوري النموذج، بل الكيان الذي يقوم فيه نظام بديل يكون في مستوى تطلعات شبابه وشعبه. ولا يجوز أن يكون لبنان دون هذه السوية.

إننا نطرح نظاماً بديلاً ندعو الشعب إلى الالتفاف حول بنوده وقواعده لتحقيقه على مستويات الحكم.

وندعو إلى إفساح المجال أمام القواعد الشعبية والثورية كي تحقق ثوريتها من ضمن النظام البرلماني الذي ما كفرت به شرط إنقاذه مما هو فيه بتعديل قانون الانتخاب على أساس إلغاء الطائفية، واعتماد التمثيل الحزبي النسبي والدعوة إلى انتخابات جديدة على هذا الأساس.

وإلا فإذا استمر النظام البرلماني يحتضن تمثيل البنية الإقطاعية الرأسمالية الفردية الطائفية المتحكمة وأحلافها الرجعية فإن الانفصال بين التمثيل والتعبير يؤدي إلى انفجارات متتالية في القواعد الشعبية لا يعلم أحد نتائجها وأبعادها.

إن لبنان الجديد، لم يعد حلماً ولا أملاً بعيداً بل أصبح حقيقة واقعة حية نامية، إنه في المدارس والجامعات، في عشرات ألوف الطلاب ومئات ألوف الشباب، إنه في القاعدة العمالية والفلاحية، وأصحاب المهن والمثقفين في كل الحقول، في القاعدة الشعبية التي انفصلت ولاءاتها وتطلعاتها وأمانيها كلياً عن جيل الميثاق الوطني، وإنه إلى هؤلاء نتوجه بالالتفاف حول النظام البديل الذي نطرحه على الشعب كله لتحقيقه بالعمل الشعبي الثوري.

إن الحركة القومية الاجتماعية تطرح نظاماً بديلاً يحقق قيام الدولة العلمانية التقدمية في لبنان إيماناً منها بدور يؤديه لبنان في بيئته الطبيعية كلها وفي العالم العربي، دور رسولي رائد يكون قيامه هو رد الفعل الحقيقي على تحديات المصير اليهودي.

علمانية الهوية القومية

إننا ندعو إلى نظام يقوم على علمنة الدولة وعلى فصل الدين عن الدولة، ولكن باختلاف كلي عما تطرحه الفئات الأخرى المطالبة بهذا المطلب. لأن علمنة الدولة في النهضة القومية الاجتماعية لا تعني الاكتفاء بعلمنة الدولة اللبنانية بل الانطلاق من الدولة اللبنانية المعلمنة برسالة علمنة وتحرير والدولة في البيئة. وعلى هذا الأساس أعلن سعاده مفهوماً جديداً للكيان اللبناني "نطاق ضمان لانطلاق الفكر الحر" إلى البيئة السورية كلها. أي تغيير معنى الكيان اللبناني بتجاوز الانفعال بأسباب نشوئه الطائفية، على يدي نهضة انطلقت لإنهاء عصر الانحطاط، بتحويل هذا الكيان إلى منطلق للثورة الاجتماعية في البيئة كلها. فبدل لبنان – الملجأ لبنان – التسوية، المنكمش في بيئته والمتغافل عن ارتباطه المصيري والحياتي بها يقوم لبنان القومي الاجتماعي الواعي لطبيعة المشكلة الاجتماعية في البيئة، العامل على إنهائها على صعيدها كلها بالثورة القومية الاجتماعية

التي تحقق فصل الدين عن الدولة على مدى الوطن السوري كله، والمرتبط ببيئته في شؤون المصير والاقتصاد ارتباطاً قومياً متفاعلاً يحقق المنعة والقوة والازدهار.

إن قيام النظام القومي الاجتماعي في لبنان هو منطلق هذه الثورة الاجتماعية في البيئة كلها، وإن حل المشكلة الطائفية في لبنان لا يكون إلا على أساس البيئة السورية كلها. من هنا نستطيع أن نتبين كيف أن الحركة السورية القومية الاجتماعية قد حلّت المشكلة الطائفية في صفوفها في لبنان وخارج لبنان على أساس الهوية القومية. من ضمن الولاء القومي حلت المشكلة الطائفية وأصبح الكل سوريين قوميين اجتماعيين لا أكثرية محمدية ولا أقلية مسيحية على صعيد الكيان. وأن الانطلاق من هذه الزاوية يجعلنا استطرادا نرى بأن لبنان مرتبط مصيرياً ببيئته. فاذا كانت المشكلة الطائفية لا تحل إلا على صعيد البيئة، اذن فمصيره القومي كله لا يصان إلا من ضمن ارتباطه ببيئته. هنا في النهضة القومية الاجتماعية حل لمشكلة لبنان الداخلية وحل لمشكلة لبنان في علاقته ببيئته ولا تحل المشكلة الطائفية اللبنانية إلا على هذا الأساس. فقد نلتقي مع كثيرين من الذين يطالبون بالعلمنة في الشكل ولكننا نختلف في الجوهر وفي الأساس في نقطتين جوهريتين:

أولاً: إنها علمنة تتخذ من لبنان منطلقا للثورة الاجتماعية في البيئة كلها.

ثانياً: إنها علمنة تنطلق من وعي للهوية القومية التي تربط لبنان ببيئته الطبيعية السورية.

ذلك أن العلمنة في ظروف مثل ظروف مجتمعنا وتجزئته الاجتماعية لا تحقق المعجزة ما لم تنبثق من الوعي القومي الذي وحده يحقق التحرر الفكري والنفسي على مستوى القاعدة الشعبية.

نظام اقتصادي جديد

إننا ندعو إلى نظام اقتصادي بديل يقوم على الإنتاج ويتوزع خيراته المنتجون. فالمعلم الآخر للنظام البديل قيام اقتصاد الإنتاج الذي يتركز على ثورة إنمائية زراعية صناعية تستوعب ارتباط لبنان ببيئته الطبيعية ـ وتسعى إلى تحقيق الوحدة الاقتصادية فيها والتي تؤدي إلى استخدام الفعاليات اللبنانية في المحيط الطبيعي والاستغناء عن الهجرة.

والمعلم الثالث للنظام البديل هو إلغاء اقتصاد الاحتكار وسيطرة رأسمال المستغل والتحرر من سيطرة الرأسمال الأجنبي واقامة **اقتصاد الشعب، اقتصاد المنتجين** "الذين ينتجون فكرا وصناعة وغلالا"، الاقتصاد الذي ينظم على أساس الإنتاج وينال فيه المنتجون نصيبهم كاملا من الإنتاج حسب إنتاجية كل منهم فيشركون بالارباح والإدارات ويخضع الرأسمال لمصلحة الإنتاج والمنتجين. الاقتصاد الذي يحقق مطالب العدالة الاجتماعية بدءاً من إلغاء احتكار العلم والدواء.

إن الاقتصاد الحر القائم في لبنان يعني غياب الدولة عن كل تنظيم أو تشريع واعتماد الأفراد وحدهم محوراً للعملية الاقتصادية وحصول التناقض بين مصالح مجموع الشعب ومصالح الفئة المحتكرة التي تمتص أموال الشعب ودمه، فتتدفق الهجرة بالألوف وباستمرار في النزيف لم يعرف توقفاً منذ نشوء لبنان ولا سيما في عهوده الاستقلالية، كما يعني في الأساس الانعزال عن البيئة واعتبار لبنان نطاقاً اقتصادياً قائماً بذاته.

إن هذا النظام الاقتصادي بأوضاعه الراهنة هو منافٍ لحياة الشعب ومصالحه. وفي الحقيقة فإن كل هذه المعالم يمكن ربطها بقاعدة أساسية هي أن لبنان المعاني من عقدة الأقليات الطائفية المنعزلة عن البيئة قد أخضع الاقتصاد للطائفية. وانطلاقاً من هذا الانعزال عن البيئة كانت كل معايب النظام الاقتصادي اللبناني الراهن.

اننا نعتقد بوجود علاقة سببية متبادلة بين الطائفية والنظام الرأسمالي الاحتكاري القائم في لبنان, إن هذا النظام قد ارتكز على أوضاع الانعزال عن البيئة التي فرضتها الحالة الطائفية، كما أنه من جهة ثانية يعمل جاهداً للإبقاء على الأحوال الطائفية المتحالفة معه والتي تتيح له الاستمرار.

ومن الخطأ والجزئية الانطلاق من زاوية اقتصادية طبقية محضة على طريقة التحليلات الكلاسيكية الماركسية أو سواها لفهم هذه الحالة ومعالجتها ثورياً. فبعض هذه التحليلات اكتفت بالنتائج من دون فهم الأسباب. **فاعتبرت حرص النظام الرأسمالي الاحتكاري على الطائفية هو كل شيء وغاب عن رؤاها إن هذه هي نتيجة اعتماد هذا النظام في الأساس على الطائفية إذ لولاها لما كان الانعزال عن البيئة الذي انبثق منه هذا النظام. وانطلاقاً من هذا الانعزال كان اقتصاد الخدمات الذي هو محاولة انعزالية للاستغناء عن البيئة وتصريف المنتوج في أسواقها الطبيعية. ومن هنا كانت الخدمات بدل الإنتاج أساساً للدخل اللبناني لأن الإنتاج يحتم الارتباط بالبيئة.**

ولقد وضعت الأزمة المصرفية ثم الأزمات اللاحقة، اقتصاد الخدمات على المحك، فكشفت هشاشته وضعفه وهزاله لافتقاره إلى مقومات اقتصادية حقيقية لا تتوفر إلا باعتماد قاعدة الإنتاج.

كما أن اقتصاد الخدمات لا يثبت لاوضاع الحرب التي تحتاج البيئة، فالذين يعملون في الفنادق والمصارف والتجارة مهدَّدون برزقهم في كل لحظة في ظل الاوضاع الركيكة المفتقرة إلى قواعد اقتصادية سليمة.

واقتصاد الخدمات هو اقتصاد القلة طالما لا يقوم اقتصاد الإنتاج الذي هو اقتصاد الكثرة، اقتصاد مئات ألوف العمال والفلاحين. إن الكثرة المنتجة إما تهاجر أو لا تجد عملاً أو تقبل بالعمل على أساس الكفاف.

من هنا كان البديل قيام نظام يستوعب العلاقة الحياتية الصميمة بين لبنان وبيئته ويحوّل اقتصاد الخدمات إلى اقتصاد إنتاج، فيقيم الثورة الصناعية والزراعية في لبنان من ضمن وعي تكامل اقتصاد لبنان مع اقتصاد سورية الطبيعية ككل. ويقيم الإنتاج الذي يكفل بقاء اللبنانيين في أرض الوطن فتنتقص حالة راهنة تجري فيها عمليتان متعاكستان: اليهود يهاجرون إلى فلسطين ليتمركزوا ويغتصبوا ويتوسعوا، واللبنانيون يهاجرون من لبنان. فتضعف مناعة المقاومة في شعب ينزف إمكاناته البشرية.

إن النظام الجديد يؤمن استقرار اللبنانيين في أرضهم ويحصنون كيانهم بالترابط مع الأرض ووعي المصير القومي، فيجابه عندها الخطر اليهودي المتوسّع بالشعب المصمّم على اقتلاع الهجرة الدخيلة من أرضنا لا على ركوب مركب الهجرة إلى اصقاع الدنيا وأطرافها وترك الوطن ألوفاً ومئات ألوف، إنه نظام يقيم الازدهار الحقيقي لمجموع الشعب لا لقلة محتكرة متحكمة.

المجابهة مع إسرائيل والتزام مصيري بالمسألة الفلسطينية

والمَعْلَم الرابع للنظام البديل هو وعي دور لبنان في معركة المجابهة مع إسرائيل من ضمن ارتباط لبنان المصيري بالمسألة الفلسطينية وبالبيئة السورية القومية وبالعالم العربي، وبالتالي قيام قدرة حربية في لبنان مهيأة لخوض حرب المصير بالتعاون المتكامل مع البيئة السورية كلها ضد العدو المغتصب في الجنوب، وذلك بتنسيق الدفاع مع دول الهلال الخصيب من ضمن قيادة موحدة والالتزام بالمسألة الفلسطينية التزاماً قومياً مصيرياً والعمل على تحويل الثورة الفلسطينية وفق استراتيجية قومية إلى حرب تحرير قومية شاملة.

نظام تربوي جديد

والمَعْلم الخامس لهذا النظام تربية قومية اجتماعية تزيل الفسيفساء الطائفية والفردية والأجنبية التي تشوه عقول ناشئتنا وتبعثر الولاء والاتجاه وتقيم نظاماً تربوياً موحداً يعتمد العلم والتوجيه القومي ويسهر على إنشاء جيل قومي جديد.

نظام ديموقراطي تتمثل فيه الإرادة الشعبية الجديدة

والمَعْلم السادس هو قيام نظام ديموقراطي تتمثل فيه الارادة الشعبية الجديدة وذلك بتعديل قانون الانتخاب وإلغاء التمثيل الطائفي وإحلال التمثيل القومي العلماني بدلاً منه واعتماد الحكم المنهجي الحزبي المسؤول بدلاً من حكم الاشخاص والتكتلات الشخصية.

لبنان الجديد المشعّ بالقدوة

هذه هي أهم مرتكزات النظام البديل الذي تطرحه النهضة القومية الاجتماعية على الشعب في لبنان لتحويله من كيان ملجأ إلى كيان قدوة، والى منارة تشعّ لا بالإشعاع التقليدي الذي يتحدثون عنه بل بالثورة القومية الاجتماعية.

هذه هي ملامح لبنان الجديد، لبنان الحلول الجذرية الثورية.

قد ينجح أصحاب الحل والربط في لبنان التقليدي بإيجاد تسوية جديدة لإضافة رقعة جديدة إلى الثوب القديم، ولكن الحل الجذري للأزمة اللبنانية لن يكون سوى الحل القومي الاجتماعي بكل شموليته الممتدة بعيداً.

- انتهى الكتاب -

فهرس الكتاب

على طريق المعلم

المنطلقات الفكرية للحزب واستراتيجيته الثورية

المفهوم القومي الاجتماعي لليسار

القومية الاجتماعية الثورة الرائدة التي
يتجه إليها العصر بتجارب أممه

الحزب السوري القومي الاجتماعي
المنطلقات العقدية للأهداف والمواقف